فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

"مقدمات تمهيدية" مفهوم الشرق الإسلامي

- الشرق من المصطلحات المستحدثة التي ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري، حيث أطلق الأوروبيون على بلادهم مصطلح الغرب و[illegible] ممتلكاتهم في آسيا وأفريقيا مصطلح الشرق.

- **وقد تفرعت هذه التسمية إلى فرعين هما:** "الشرق الأقصى" ويقصد به الصين والهند وما جاورهما من بلاد، و"الشرق الأدنى" ويقصد به البلاد المعروفة الآن بدول "الشرق الأوسط" أو "الشرق الإسلامي".

وهي البلاد الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والتي تتميز بأنها أقرب بقاع العالم الشرقي إلى الغرب.

- وهي الدول العربية الواقعة في قارة آسيا وما يتاخمها هي من الدول الإسلامية كتركيا في الشمال وإيران في الشرق، بالإضافة إلى مصر وهي الدولة العربية الوحيدة من الشرق الإسلامي التي تقع في إفريقيا".

- وتحتل منطقة الشرق الإسلامي موقعًا مهمًا في الخريطة الجغرافية العالمية حيث تقع وسط العالم وبين قاراته الثلاث: أفريقيا وأوروبا وآسيا وتطل على مجموعة من البحار والمحيطات والخلجان ذات الأهمية التجارية الكبيرة، مما جعلها مجازا للتجارة العالمية قبل العصر الحديث، هذا فضلا عن تضاعف أهمية هذه المنطقة في العصر الحديث بعد ظهور الاكتشافات البترولية بكميات هائلة، مما أطمع المستعمرين في مقدرات الشرق الإسلامي، وأصبحت أرضه بينا الحين والحين ميدانًا للمعارك والحروب.

نشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية

- يُعرف المملوك – لغة– بأنه العبد الذي يباع ويشترى، وجمعه مماليك، وبعدها أصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقًا إما نتيجة للأسر في الحروب، أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية".

ويلاحظ أن مصطلح المماليك قد ارتبط بالأتراك أكثر من ارتباطه بغيرهم من أجناس الرقيق.

- ذلك لأن المعتصم بالله أول من شكل فرقا عسكرية من الأتراك، إذ عني باقتناء أبناء هذا الجنس صغارا، وعكف على جلبهم من [illegible] وفرغانة والسند وغيرها من أقاليم ما وراء النهر حتى بلغت عدة مماليكه بضعة عشر ألفا".

- وقد أصبح استخدام المماليك الأتراك ظاهرة شائعة في كثير من أنحاء الدولة الإسلامية وبخاصة بعد أن ضعفت الخلافة العباسية.

- ولم تكن مصر بمنأى عن تلك الظاهرة؛ إذ جرى إلحاق المماليك الأتراك في الجيش في طور مبكر من تاريخها فكانوا عنصرًا مؤسسًا في جيش الطولونيين، حيث حرص أحمد ابن طولون (ت ٢٧٠هـ) على جلب أعداد كبيرة منهم.

كذلك كان المماليك عنصرا مؤثرا ومؤسسا في جيوش الإخشيديين والفاطميين.

- وعلى الرغم من أن المماليك الأتراك قد تزايدت أعدادهم في مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي فإن النظام المملوكي لم يستوف مقوماته المعروفة إلا في عهد خلفائه، فقد أدت التراعات التي قامت في الأسرة الأيوبية إلى الإفراط في جلب المماليك للاستعانة بهم في هذه التراعات ولذا يكثر في تاريخ الأيوبيين أسماء الفرق الملوكية، مثل: المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين والعادلية نسبة إلى السلطان العادل، والأشرفية نسبة إلى الأشرف موسى بن العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل وهكذا.

- **فرقة المماليك البحرية:** يعود الفضل للسلطان الصالح نجم الدين أيوب في تكوين فرقة جديدة من المماليك قُدّر لها أن تنهض بدور خطير في التاريخ "هي فرقة المماليك البحرية"، والتي شرع في تكوينها سنة ٦٣٨هـ.

- **معاملة المماليك:** لم يكن المماليك المحاربون يعاملون معاملة الرقيق، بل كانوا يتمتعون بامتيازات عالية، وكانوا يتحررون ويعتقون ويتولون أرقى المناصب، ويشعرون أن السلطان واحد منهم وكانت ثقافتهم وتربيتهم تعتمد على التعليم الديني والعسكري وكانوا يمارسون للسباحة والرمي والمبارزة، وكان التفوق العسكري هو طريق الترقي إلى نيابة السلطنة أو السلطنة نفسها.

الباب الأول العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ)

الفصل الأول دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ)

- **من الأيوبيين إلى المماليك:** خرجت دولة المماليك البحرية من رحم الظروف التاريخية العصيبة التي أحاطت بالأيوبيين الأواخر

Sweet Dreams

Scanned with CamScanner

والتي تمثلت في الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ، وكانت الظروف الداخلية في مصر آنذاك من الخطورة بمكان؛ نظرًا لأن السلطان نجم الدين أيوب كان يعاني مرضا عضالا فاضطر. للخروج إلى دمياط على رأس جيشه محمولا على محفة، ثم كانت الفاجعة بوفاة السلطان في النصف من شعبان سنة ٦٤٨هـ، وهو في الرابعة والأربعين من عمره.

وقبل موته كان قد عهد بالحكم بعده لابنه "تورانشاه"، وأخذ العهد بذلك من كبار رجال دولته كما أمرهم بكتمان خبر موته حتى يقدم ابنه من حصن "كيفا".

– وقد نفذوا وصيته فلم يخبروا الجيش بذلك حفاظا على روحهم المعنوية، ومنعا لوصول ذلك إلى عيون الأعداء".

- **معركة المنصورة**: في هذه المعركة بذل المماليك البحرية جهودًا كبيرة في الدفاع عن مدينة المنصورة، واشتبكوا مع الصليبيين في قتال ضار في شوارعها وأزقتها، حتى هزموا وانسحبوا بعد أن شاع في صفوفهم القتل والأسر وكان من الأسرى لويس التاسع نفسه الذي سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان.

- **مقتل تورانشاه**: كان المنتظر من تورانشاه بعد قدومه إلى مصر لتسلم الحكم أن يحفظ جميل المماليك، وأن يحسن إليهم لكن ما حدث كان خلاف ذلك فقد تجاهل الأمراء الكبار الذين كانوا أهل الحل والعقد في حياة أبيه، واعتمد على مجموعة من المماليك الذين جاءوا معه من حصن كيفا.

وبالتالي: ساءت علاقته بالمماليك حيث كان يتوعدهم بالقتل، ويطلب منهم الأموال والجواهر.

– وانتهى الأمر بأن في قرر المماليك التخلص منه، فقتلوه في عام ٦٤٨هـ، وبموته ينتهي حكم الأيوبيين من مصر بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة، وعدد ملوكهم ثمانية .

حكم شجر الدر

– يبدو أن المماليك الذين قتلوا تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة، ولذلك أجمعوا على تولية "شجر الدر" أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب منصب السلطنة، وهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك"، ولأجل هذا فإن المقريزي يعدها "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك" كما اجتمع الرأي على أن يكون نائبها وقائد جيشها الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي".

– وقد خُطب على المنابر للسلطانة "شجر الدر" ونقش اسمها على النقود باسم "المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين".

– وعلى الرغم من تقربها من الأهالي والشعب والأمراء بمنحهم الاقطاعات، وتخفيض الضرائب"، فضلا عن قيامها بواجبات ملكها خير قيام لدرجة أنها كانت في رأي أحد المؤرخين "أحسن تدبيرا من زوجها الصالح".

فإن الرأي العام في مصر وفي العالم الإسلامي لم يكن ليقبل بقيام امرأة على كرسي الحكم

– كذلك رفض الخليفة العباسي الاعتراف بالسلطانة الجديدة، كما رفض الأيوبيين الحاكمين في بلاد الشام الاعتراف بهذا التتويج، وقرروا القيام بعمل عسكري للاستيلاء على مصر.

– وخروجا من هذا الموقف رأت شجر الدر ومعها المماليك البحرية أن تخلع نفسها– بعد ثمانين يوما من الحكم– وأن تفوض الملك إلى قائد من المماليك تجتمع عليه الكلمة، فوقع الاختيار على الأمير عز الدين أيبك، فتولى الحكم وتلقب بالمعز، وتزوج من شجر الدر.

السلطان المعز أيبك وتوطيد نفوذ المماليك في مصر (٦٤٨ – ٦٥٥ هـ)

– تولى أيبك التركماني السلطنة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وتلقب باللقب السلطاني "الملك المعز"، رغم أنه لم يكن في الواقع أكبر أمراء المماليك سنًا، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذا، إذ كان يوجد من هم أكبر منه وأقدر مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس، لكنه كان يتمتع بصفات طيبة، وخصال كريمة.

– ويبدو أن المماليك حسبوه ضعيفا فولوه الأمر مخافة أن يتقلده أحد المماليك الأقوياء فينفرد الأمر دونهم، ويبعدهم عن تصدر المشهد السياسي في مصر في ذلك الوقت.

وتدل رواية ذكرها السيوطي على أن وصول أحد المماليك لم يكن موضع رضى وقبول لدى المصريين.

– ومهما يكن من أمر، فقد أصبح المعز أيبك حاكم مصر نائبا عن الخليفة العباسي الذي فوضه في حكم البلاد، وكان عليه لتثبيت دعائم ملكه أن يواجه عددًا من الأخطار التي واجهته.

Scanned with CamScanner

(١) **خطر المماليك البحرية**: أول هذه الأخطار تمثل في اعتراض المماليك البحرية على وجود أيبك على رأس السلطة في مصر، وذلك على الرغم من مبايعتهم له والغريب أنه لم تكن قد مضت على هذه البيعة سوى خمسة أيام، وقاد اعتراض من المماليك في ذلك الوقت الأمير فارس الدين أقطاي، والأمير ركن الدين بيبرس، وعدد آخر من كبار المماليك البحرية وأعلنوا أنه لابد أن يجلس على العرش سلطان من بني أيوب يجتمع الكل على طاعته".

– ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للمماليك البحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستارا يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية.

– وقد احتال أيبك لإرضاء المعارضين بالموافقة على تنصيب صبي صغير من بني أيوب سلطانا هو الأشرف موسى الذي لم يكن له من الملك سوى الاسم واصبح لمصر سلطانان.

– ولم تصف الأمور بعد ذلك للمعز أيبك من جانب المماليك، فقد ظل زعيمهم فارس الدين أقطاي يمارس نفوذا واسعا في البلاد، وتلقب بالملك الجواد"، كذلك عظم فساد مماليكه فكانوا يأخذون أموال الناس عنوة، ويعتدون على نسائهم، كل ذلك دفع المعز أيبك إلى قتل أقطاي، ونتج عن ذلك تفرق مماليكه في البلاد وانتهاء فتنهم في مصر.

(٢) **خطر الأيوبيين**: الخطر الثاني الذي واجهه السلطان أيبك تمثل في ملوك الأيوبيين في بلاد الشام الذين كانوا ينظرون إلى مصر بوصفها جزءا من دولتهم، فأخذوا يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة.

ولهذا قرر الناصر يوسف الأيوبي حاكم حلب ودمشق الزحف على مصر للقضاء على حكم المماليك.

– وفي تلك الظروف أثبت السلطان المعز أيبك قوته فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميولهم للأيوبيين، ثم أنتصر على الأيوبيين في ذى القعدة سنة٦٤٨ هـ، وفر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام، وعاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة.

ولا شك في أن هذه الموقعة كان لها أثرها وأهميتها في تثبيت دولة أركان المماليك الناشئة.

– الأمر الذي شجع المعز أيبك على أن يرسل مماليكه للاستيلاء على غزة، لكن لم يستمر الصراع بين المماليك في مصر والأيوبيين في الشام، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعا في الشرق الإسلامي، وهو خطر المغول.

– فما كان من الطرفين المتنازعين إلا المسارعة إلى تلبية دعوة الخليفة المستعصم العباسي للصلح، فتم الصلح في عام ٦٥١ هـ بين المماليك والأيوبيين".

- **مقتل المعز أيبك**: قتل عام ٦٥٥هـ، بتدبير من زوجته السلطانة شجر الدر؛ فقد بلغها أنه عزم على الزواج من ابنة الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فخشيت أن يؤدي ذلك إلى إبعادها عن دائرة النفوذ والسلطنة، فعاجلته ودبرت مقتله، لكنها لقيت المصير نفسه على يد مماليك زوجها ليخلو المسرح السياسي في مصر من أيبك وشجرا الدر جميعا.

حكم المنصور علي بن أيبك (٦٥٥ / ٦٥٧ هـ)

– اتفق المماليك على أن يتولى المنصور علي بن أيبك الحكم بعد مقتل أبيه، وكان عمره في ذلك الوقت خمس عشرة سنة، ولذلك تولى الأمير سيف الدين قطز نيابة السلطنة، وأصبحت أمور الدولة وتصريف شئونها في يده. غير أن تقلد المنصور علي الحكم خلفا لأبيه يثير تساؤلا مهما، وهو هل يعني هذا أننا بصدد حكم وراثي ؟!

– والحقيقة أن الأحداث التي صاحبت الحكم المملوكي في مصر والشام تؤكد أن المماليك لم يؤمنوا طوال حكمهم للبلاد بنظام وراثة العرش.

– وكان الذي يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الأمراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى في منصب السلطنة خلفا لأبيه، لا إيمانا بمبدأ الوراثة، ولكن كحل مؤقت حتي ينجلي الموقف ويظهر الأمير القوي الذي يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الأمراء، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه.

– وهذا بالضبط ما حدث بعد وفاة المعز أيبك فقد أجمع الأمراء على تولية ابنه المنصور الحكم وهو لم يزل طفلا لا يحسن من أمر السياسة شيئا حتي استطاع الأمير قطز حسم هذا الصراع، والقضاء على المتنافسين والطامعين"، ثم استغل خطر جيوش المغول الزاحفة تجاه مصر ليسيطر على العرش، بعد أن قبض على المنصور علي واعتقله وأسرته بعد أن جلس على العرش حاكما شكليا مدة سنتين وثمانية أشهر.

المماليك والخطر المغولي

كان اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي كارثة من أسوأ الكوارث التي حلت بالجنس البشري.

– والمغول هم قبائل رعوية بدائية عاشت في هضبة منغوليا في شمال الصين، وهو مكان يتسم بقسوة مناخه سواء في الصيف أو في الشتاء،

Scanned with CamScanner

وبجوارهم عاشت قبائل أخرى تسمى بقبائل التتار والتي تميزت عن قبائل المغول بأنها أكثر رفاهية وتنعما كما كانوا أكثر تحضرا وثراء.

وعلى الرغم من أن قبائل المغول تختلف عن قبائل التتر أو التتار فإن اسم "التتار" هو الذي غلب على هذه الأسماء.

- **جنكيز خان**: بدأ تاريخ المغول السياسي مع جنكيزخان حيث استطاع أن يسيطر على كافة القبائل المغولية وأن يكوّن منها حكومة موحدة، ثم سيطر على مناطق الصين الشمالية، واستمر في توسعه حتى استطاع أن يقضي على الدولة الخوارزمية التي كانت تحكم بلاد ما وراء النهر وإيران، ودمروا الحواضر الإسلامية الكبرى المتمثلة في بخارى وسمرقند ومرو ومدن إقليم خراسان وغيرها من الحواضر المهمة في إيران والتي حولها المغول من مدن مزدهرة بالحياة والحضارة والعلم والفن إلى خراب ودمار وإبادة لأهلها وسكانها، والقضاء على الحياة فيها.

- **هولاكو**: استمر أبناؤه من بعده في غزوهم لمدن العالم الإسلامي ففي عام٦٥١هـ خرج حفيده هولاكو على رأس جيش من المغول وأكمل سيطرته على بلاد ما وراء النهر، وزحفت جيوشه على إيران وأكملت سيطرتها عليها، وفي عام ٦٥٥هـ هاجمت جيوشه العراق وأسقطت الخلافة العباسية بعد قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٦، وخرب المغول مساجد بغداد ومدارسها، وسفكوا دماء أهلها وقد ذكر المقريزي أن عدد من قتل من أهلها على يد المغول "نحو الألفي ألف قتيل"، ولم ينج من هذه المذابح سوى اليهود والنصارى ومن لجأ إلى دار الوزير العلقمي وزير العباسيين الشيعي الذي خان الخليفة وسهل للمغول استيلاءهم على بغداد".

- **سيطرة المغول علي بلاد الشام**: اتجهت جيوش المغول عام ٦٥٧ هـ للسيطرة على الشام، وتمكنوا من الاستيلاء على مدن الشام التي كانت تحت حكم الأيوبيين الذين كانوا في نزاع وخلاف، ولو قُدر لهؤلاء الأمراء الأيوبيين أن يتحدوا ويتكتلوا لاستطاعوا أن يكونوا سدا منيعًا، لصد خطر المغول.

معركة عين جالوت (٦٥٨هـ) واتساع النفوذ المملوكي:

– بعد أن استولى المغول على بلاد الشام لم يعد هناك من بلدان المشرق الإسلامي سوى الحجاز، واليمن، ومصر، ولذلك اتجهت جيوش المغول صوب مصر بغية الاستيلاء عليها سنة ٦٥٨ هـ.

– وقد جاءت رسل هولاكو إلى مصر حاملة رسالة تهديد ووعيد إلى سلطانها، (فيما عرف بالحرب النفسية) ضد أعدائهم قبل الصدام بهم من أجل تحقيق أهدافهم في سهولة ويسر.

– ولما وصلت هذه الرسالة إلى قطز جمع الأمراء للمشورة، واتفقت الآراء على التجهيز للقاء المغول، وكان رد السلطان قطز على هذه الرسالة ردًا عمليا، إذ اتفق مع الأمراء على قتل رسل هولاكو تأديبا وتخويفا، وقطعت رؤوسهم وعلقت على أبواب القاهرة كي يكونوا عبرة لغيرهم.

– وبعدها بدأ المظفر قطز في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الكبير، فعمد إلى تعبئة الرأي العام استعدادًا لخوض المعركة، ثم أخذ في استكمال الاستعدادات الحربية، وجمع الأموال اللازمة للإنفاق عليها، واستجاب لرغبة رجال الدين– على رأسهم العز بن عبد السلام– لجمع الأموال من الأغنياء والقادة والأمراء قبل أن يقوم بجمعها من عامة الناس.

- ووسط هذه الأزمة يحدث أمران مهمان، كانا من الأسباب التي دعمت الجيش المسلم بقيادة قطز:

- **الأول**: هو عودة المماليك البحرية الذين فرّوا بعد مقتل الأمير أقطاي، وطلبو الأمان من قطز، وطلبوا المشاركة في الجهاد ضد الخطر المغولي، وقد أكرمهم السلطان إكراما كبيرا وبخاصة الأمير بيبرس، وأحسن استقبالهم، وبذلك تماسك المماليك جميعا سواء المماليك البحرية أم غير المماليك البحرية، لمواجهة أفدح خطر هدد العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري.

- **الأمر الثاني**: عودة هولاكو إلى عاصمة المغول لحدوث نزاع بين إخوته حول الحكم، وقد ترك قيادة جيشه لقائده "كتبغا" ولا شك أن عودة هولاكو ومعه جزء من جيشه كان لها أثر في إضعاف قوة التتار في ذلك الوقت".

– وبعدها زحف جيش المماليك باتجاه الشام، وقد سبقه الأمير بيبرس على رأس قوة الاستطلاع، وقد تمكن بيبرس من الاستيلاء على غزة من ايدي المغول، ثم التقى بالجيش بقيادة قطز وواصلوا مسيرهم حتى وصلوا "عين جالوت" – وهي بلدة صغيرة بين بيشان ونابلس من أعمال فلسطين، وهناك التقى الجيشان ودارت معركة شديدة في رمضان سنة ٦٥٨ هـ، أبلى فيها الجيش المملوكي بلاء حسنا وعلى رأسهم السلطان قطز الذي كان يُقاتل بنفسه المغول صارخا "وا إسلاماه" ليلهب حماس جنوده، وكذلك الأمير بيبرس، وقد قتل عدد كبير من جيش المغول وكان على رأس القتلى القائد كتبغا.

- **نتائج موقعة عين جالوت**: كانت معركة عين جالوت واحدة من المعارك الفاصلة في تاريخ المنطقة العربية بأسرها، ولم تكن نتائجها مقصورة على التأثير في تاريخ المسلمين في الشرق الإسلامي فقط، وإنما في تاريخ العالم، وأهم هذه النتائج ما يلي:

Scanned with CamScanner

١- كانت بمثابة سد منيع حال دون تقدم المغول إلى مصر، وبذلك احتفظت مصر بما لها من حضارة ومدنية فأضحت القاهرة المركز الجديد للإسلام، وقمياً لمصر – والشام بالتبعية– مركز الزعامة والقيادة في العالم الإسلامي".

٢- قضت معركة عين جالوت على الخرافة التي ذاعت عن الجيش المغولى بأنه جيش لا يغلب، فقد لقي المغول لأول مرة في حروبهم في الشرق هزيمة حاسمة، وأدت هذه الهزيمة إلى صدمة عنيفة أصابت هولاكو، الذي صمم على تجهيز جيش جديد إلى الشام ومصر للانتقام من المماليك، غير أن الظروف لم تمكنه من تحقيق ذلك.

٣- نتج عن هذا الانتصار أيضًا توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك الذين حكموا الشام لأول مرة في تاريخهم، وأصبحوا أمام الرأي العام الإسلامي أجدر الناس بتولي السلطة في الشرق الإسلامي، بعدما أزاحوا عن كاهله خطرين عظيمين، حيث ردوا الحملة الصليبية السابعة على مصر، وانتصروا لأول مرة على جحافل المغول التي لم تهزم من قبل.

لقد أكسبت عين جالوت الدولة المملوكية الناشئة ما كانت بحاجة إليه من سند شرعي لحكم البلاد، ووراثة الدولة الأيوبية.

٤- نتج عن الانتصار في هذه المعركة – أيضا– انحصار المد المسيحي عن آسيا.

٥- أما فيما يتصل بنتائج انتصار عين جالوت على التاريخ الإسلامي العالمي، فيمكن القول بأن هذه المعركة أنقذت العالم المسيحي في أوروبا من خطر المغول المدمر، فلم يكن في أوروبا المسيحية وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو تقدموا في اتجاههم الطبيعي نحو أوروبا، ولذا فلا غرابة إذا كان بعض الأوروبيين أنفسهم يعتبرونها أهم معركة في التاريخ على مر عصوره المختلفة".

السلطان بيبرس (٦٥٨هـ/٦٧٦هـ) ومرحلة بناء الدولة واستقرار الحكم:

– قتل المظفر قطز إثر مؤامرة دبرها له الأمير بيبرس وهو في طريق عودته إلى القاهرة، ولم يكن قد أتم عامًا كاملا على عرش البلاد"، ولما كان من المألوف في عصر المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل على عرش السلطنة، ما دام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ما ضمن له التفوق على زملائه من الأمراء، ففي الوقت الذي كان قطز ما يزال ملقى على الأرض، يدفن ولم تجف دماؤه، تقدم الأمراء من المماليك البحرية لمبايعة بيبرس بالسلطنة قبل أن يعودوا إلى القاهرة".

– جلس بيبرس على عرش مصر بعد أن بايعه الأمراء من المليك البحرية، وتلقب بالظاهر، وهو يعد في القمة من سلاطين المماليك، وفي عهده بدأ البناء الحقيقي لدولة المماليك البحرية، ويمكن إجمال أهم ما قام به بيبرس في النقاط الآتية:

(١) **إلغاء الضرائب**: أول الإجراءات التي قام بها بيبرس إلغاؤه للضرائب التي فرضها السلطان قطز على الناس لتمويل جيشه الحرب، المغول فسعد المصريون بذلك واطمأنت قلوبهم بعد أن كانوا في غم بعد مقتل السلطان قطز، وخوف من ظلم المماليك البحرية وسوء حكمهم.

(٢) **القضاء على الثورات**: واجه بيبرس بعض الثائرين عليه من الأمراء، مثل الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذي كان واليا على دمشق، ولما علم بمقتل السلطان قطز ثار وأعلن نفسه سلطانا، وقد قضي بيبرس علي هذه الثورة في عام ٦٥٩هـ.

– كما نجح في القضاء على تمرد الأمير شمس الدين آقوش الذي استولى على حلب، وطمح في المسير إلي مصر لانتزاع ملكها سنة ٦٦١هـ.

وكذلك نجح في القضاء على تمرد المغيث عمر صاحب الكرك وهو من نسل الأيوبيين.

– ولم تكن جميع الثورات التي واجهها بيبرس في مستهل حكمه في بلاد الشام فقط، وإنما قامت ثورة شيعية في القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية، لكن جنود بيبرس أحاطوا بهم، وقضوا عليهم في سهولة ويسر.

(٣) **إحياء الخلافة العباسية في القاهرة**: بقى علي بيبرس أن يضفي على حكمه رداء الشرعية، ورأى الحل في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم.

– وعلى الرغم من أن بيبرس لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية، فإنه أول من نجح في تحقيق هذا المشروع.

– وكان قطز قد فكر في إحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٨هـ عندما أرسل يستدعي واحدًا من سلالة العباسيين هو أبو العباس أحمد، وجاء الأمير العباسي بالفعل إلى دمشق وبايعه قطز بالخلافة؛ ولكن مصرع قطز حال دون إعادة كرسي الخلافة إلى القاهرة.

– وفي عام ٦٥٩هـ استدعى بيبرس أميرا عباسيا أخر هو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر، وخرج لاستقباله على مشارف القاهرة، ومعه الوزير، وقاضي القضاة، والعلماء والشهود والأعيان، ثم بايعه بيبرس في القلعة على الخلافة في رجب سنة ٦٥٩هـ، وبعد ذلك فوض الخليفة العباسي السلطان بيبرس في حكم البلاد الإسلامية، ومنحه لقب "قسيم أمير المؤمنين" الذي لم يحصل عليه أحد قبله.

وهكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الديني الذي يؤكد شرعيتها في عيون المعاصرين.

Scanned with CamScanner

– لكن هل كسبت الخلافة العباسية نفسها شيئا من إحيائها في القاهرة؟ الواقع يؤكد أنها لم تكسب شيئا، فلم يكن للخليفة أي دور حقيقي سوى السعي إلى حفلات تنصيب السلاطين وولاة العهد. أما الفائدة الحقيقية فقد عادت على السلاطين وعاصمتهم القاهرة؛ فقد صاروا هم حماة الخلافة، ومن ثم حقّ لهم أن يدّعوا لأنفسهم مكانة سامية في العالم الإسلامي.

٤- بيبرس والصليبيون والمغول:

- **أولاً: المغول**: لم ينس المغول الهزيمة الثقيلة التي حلت بهم في عين جالوت، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سنحت لهم الفرصة بذلك.

ولم تنقطع المعارك بين المماليك وبين المغول الذين أقاموا لهم دولة في إيران والعراق

– ففي سنة ٦٥٩هـ أغار المغول على حلب، وضيقوا على أهلها حتى أكل من بها الميتة والجلود، فالتقى بهم المسلمون عند حمص وهزموهم هزيمة منكرة.

كما تعرضت دمشق لهجوم المغول في عام ٦٦٠ هـ.

– وفي عام ٦٦٣هـ صد أهل "ألبيرة" الواقعة بين حلب والثغور الشامية هجوما، للمغول وقد أكرم الظاهر بيبرس أهل هذا الثغر إكراما كبيرا.

– وقد حاول الحاكم المغولي "أبغا" أن يعقد مصالحة مع الظاهر بيبرس منذ عام ٦٦٤هـ، وأرسل الرسل محملين بالهدايا، لكن بيبرس رفض طلبه.

– إذ كيف يرضى لنفسه أن يصالحهم، وهم الذين مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا الخليفة، وحالفوا أعداء الإسلام"؟!

ولذلك ظلت حالة الصراع قائمة بين الطرفين

– ففي عامي ٦٧١هـ و ٦٧٤هـ أغار المغول على "ألبيرة"، لكنهم هزموا ولم يتمكنوا من السيطرة عليها.

– وعلى أية حال، فقد نجح بيبرس في إفشال مخططات مغول إيران، ولم ينجحوا في احتلال مدن الشام والسيطرة عليها بفضل يقظته واستعداده، وسرعة حركة جيشه.

- **معركة أبلستين**: تعد ابْلُستين سنة ٦٧٥هـ أهم المعارك التي خاضها بيبرس ضد المغول، حيث مزق جيشهم شر، ممزق وهزموا هزيمة منكرة تشبه هزيمتهم في عين جالوت.

- **ثانياً: الصليبيون**: كانوا يحتلون المدن الساحلية المهمة في الشام مثل: عسقلان، ويافا، وأرسوف، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، فضلا عن إمارتي طرابلس وأنطاكية، وبعض المدن الداخلية مثل طبرية.

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبين على شكل مناوشات محلية.

– خرج بيبرس على رأس جيشه في عام٦٦٣ هـ، وتوجه إلى "قيسارية" التي كانت قلعة حصينة منيعة. ودارت معركة ضارية هزم فيها الصليبيون، وسلموا القلعة فأخذ الجنود في هدمها، وقد شاركهم السلطان نفسه في الهدم، كما يذكر المؤرخ المقريزي. وبعد فتحه لقيسارية توجه نحو مدينة ساحلية أخرى بين قيسارية ويافا هي "أرسوف"، ففتحها أيضًا في عام ٦٦٣هـ.

– والحقيقة أن بيبرس كان شديد الحراسة في حروبه ضد الصليبيين في بلاد الشام، ففي أثناء زحف الجيش تجاه حصن "صفد" اضطر الجنود لحمل المجانيق على رقابهم وجَرَّ السلطان بنفسه معهم.

- **سقوط إمارة أنطاكية**: في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م استولى بيبرس على مدينة "يافا" في أقصى الجنوب، ثم وجه ضربة حاسمة في السنة نفسها إلى أهم إمارة صليبية وهي "أنطاكية" في أقصى الشمال. ويروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى، والثالثة هي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس.

– وكان سقوط إمارة أنطاكية في الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية؛ لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سندا قويا للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية".

– لقد قام بيبرس بمناوأة الصليبين في بلاد الشام لمدة عشر سنوات كاملة (٦٥٩/٦٦٩هـ)، ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها إلى الإمارات الصليبية.

– والأهم من هذا كله أنه في حملاته في السنوات العشر ينتصر فيها على الصليبين، ويهزم جيوشهم، ويستولي على حصونهم ومدنهم الواحدة بعد الأخرى، ولم ترهم في أية موقعة حربية نالوا منه شيئا أو كُتب لهم النصر عليه.

Scanned with CamScanner

٥- الإصلاحات الإدارية والاقتصادية وضبط أمور الدولة:

– أول الأمور التي قام بها بيبرس بعد توليه الحكم هو إلغاء ما فرضه قطز من ضرائب على المصريين لتجهيز الجيش في حربه مع المغول، وقد أدى ذلك إلى سريان روح من التفاؤل والبشر بين المصريين بعد حالة من الخوف واليأس.

– وبالإضافة إلى ذلك الإصلاح الضريبي يلاحظ أن الظاهر بيبرس كان حريصا في فترة حكمه على النهوض الاقتصادي بمصر والشام والحجاز، ومن ذلك إنشاؤه لعدد من القناطر في مصر، وبلاد الشام، وكذلك اهتمامه بعمارة الحرم النبوي الشريف، ومسجد قبة الصخرة بالقدس، وتعمير القلاع الموجودة في بلاد الشام، وحرصه على تحقيق الأمن الاقتصادي ومواجهة الغلاء".

– **وعلى صعيد الإدارة:** يذكر المؤرخون أن الظاهر بيبرس قد استحدث مجموعة من الوظائف للأمراء والجنود، ومن هذه الوظائف: أمير السلاح، وهو المسئول عن سلاح السلطان يوم الحرب، وكذلك أمير المجلس، وصاحبها مسئول عن مجلس السلطان وإعداده وتنظيمه، وكذلك وظيفة الدَّوادار، وهو مأخوذ من الدواة، وأصحابها أرباب الكتابة في ذلك العصر، كما عظمت في عهده بعض الوظائف كولاية الشرطة والحسبة فقد منحهما السلطان عددًا من السلطات لم تكن مخولة لهم من قبل.

– **وفي مجال القضاء:** أمر السلطان بيبرس في عام ٦٦٣هـ بأن يكون لكل مذهب من المذاهب الفقهية قاض مستقل بذاته، فصار القضاة، أربعة وذلك ضمان للعدالة، وتوسعة على الناس في أحكامهم.

– يضاف إلى ما سبق أن الظاهر بيبرس كان حريصا على متابعة شئون الدولة بنفسه لاسيما ما يتصل بالعلاقة بين الولاة والرعية، فكان يتحقق من مدى صدق ما يبلغه شكاوي الرعية، وكان حريصا على الجلوس بنفسه في دار العدل، ينظر في تلك الشكاوى ويحكم فيما شجر بينهم ويرد الحقوق لأصحابها.

أبناء بيبرس:

– توفي بيبرس في عام٦٧٦هـ، وكان قد عهد بالحكم لابنه السعيد محمد بركة خان في حياته، وأخذ له البيعة من الأمراء وكبار رجال دولته، وقد تمت بيعته مرة أخرى بعد وفاة أبيه.

– والحقيقة أن تصرف الظاهر لا يعني أنه كان مؤمنا بمبدأ وراثة الحكم، لكن يبدو أن غريزة الأبوة قد غلبته فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه.

– لكن السلطان الجديد أساء إدارة البلاد، فعمد إلى تقريب مماليكه على حساب كبار الأمراء، وخصهم بالأموال ومنحهن نفوذا يفوق أمراء المماليك الكبار، وقد أدت هذه السياسة إلى تحالف زعماء المماليك ضده وعلى رأسهم الأمير سيف الدين قلاوون، وقاموا بمحاصرته في القلعة، وفي النهاية خلع نفسه في الحكم، ورضي أن يتوجه إلى الكرَك.

وبذلك انتهت مدة حكمه التي كانت حوالي سنتين وشهرين.

– وكان أكثر الأمراء حظا لتولي السلطة في ذلك الوقت هو الأمير سيف الدين قلاوون، ولذلك عرض عليه الأمراء ذلك، لكنه تظاهر بالرفض، حيث رأى أن غالبية الجيش من المماليك الظاهرية التابعين للظاهر بيبرس، فضلا عن الأمور لم تكن مهيأة له للجلوس على عرش السلطنة فخاف أن يثور عليه الأمراء والجنود.

– واستقر رأي الأمراء على أن يتولى الحكم اسُلامِش بن بيبرس، على أن يكون الأمير سيف الدين قلاوون وصيا عليه لكونه صبيا في السابعة من عمره، وهذا يعني أن أمور الدولة أصبحت في يد قلاوون فأخذ الأمر لنفسه.

وبعدها خلع سلامش، وأرسله إلى الكرَك، وكانت مدة جلوسه على العرش مائة يوم، ولم يكن حظه من الملك سوى الاسم فقط".

أسرة قلاوون:

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الملك؛ فالأمراء جميعًا سواء والملك للأقوى.

– ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة باستثناء بيت قلاوون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلا فريدا في تاريخ المماليك على بقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن.

– ولا شك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعا خاصًا مميزا في تاريخ المماليك.

السلطان المنصور قلاوون:

– تولى السلطان المنصور قلاوون في عام ٦٧٨ هـ عرش سلطنة المماليك وهو واحد من كبار المماليك البحرية، وقد زامل قطز في القتال ضد الحملة الصليبية السابعة على مصر، ورافقه أثناء الهرب إلى بلاد الشام بعد مصرع الأمير أقطاي، كما شارك في القتال مع المماليك في

Scanned with CamScanner

موقعة عين جالوت، وظل في خدمة بيبرس طيلة فترة حكمه، وزوج ابنته للملك السعيد بن بيبرس، ثم تولى الوصاية علي بدر الدين سُلامش حتي مهد الأمور خلعه وتولى الحكم مكانه".

– وقد واجه السلطان قلاوون في بداية حكمه تمردًا في دمشق، حيث خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الاشقر نائب دمشق.

– وقد وصل الأمر بالأمير سنقر أن نادي بنفسه سلطانا على الشام وتلقب بالملك الكامل، لكنه لم يجد تأييدا من أهل دمشق، وهزم على يد جيوش السلطان قلاوون سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م).

– وفي عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م تعرض لمؤامرة من قبل بعض الأمراء الظاهرية – من مماليك الظاهر بيبرس– وقد اتصل هؤلاء الأمراء سرا بالصليبيين واتفقوا على قتله لكن السلطان علم بالمؤامرة، وقبض عليهم، وقتل عددًا كبيرًا منهم، واستطاع بعضهم الفرار من قبل أن ينال جزاءه.

- **فرقة المماليك الجراكسة**: يبدو أن إحساس قلاوون بموقف الظاهرية منه، جعله يفكر جديا في إنشاء طائفة من المماليك تنسب له ليعتمد عليهم في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

– ولذلك أكثر من شراء المماليك وكان معظمهم ينتمي إلى العنصر الجركسي الذي يعود أصله إلى شمال بلاد القوقاز، وقد بلغ عددهم في أواخر أيام السلطان قلاوون حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، وأنزلهم في أبراج قلعة القاهرة، ولذلك عرفوا بالبرجية.

قلاوون ومواجهة المغول والصليبيين

- **أولا: المغول**: تابع المنصور قلاوون جهود بيبرس في التصدي للمغول المغيرين على الشام، ففي سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م أغاروا على حلب وما يتبعها من مدن، فحشد المنصور قلاوون جنوده، وخرجوا لملاقاتهم، لكنهم انسحبوا عائدين إلى بلادهم.

– وفي عام ٦٨٠هـ هاجم التتار الشام ومعهم الكرج المسيحيون (جورجيا الآن)، والأرمن والصليبيون في جيوش جرارة زادت على الثمانين ألفا، وخرج المنصور قلاوون على رأس الجيش، والتقى الفريقان عند مدينة حمص؛ ولذلك سميت المعركة باسمها، وقد قد ثبت الجيش المملوكي بقيادة قلاوون ثباتا عظيما، فكان النصر من الله جزاء على هذا الثبات في الدفاع عن بلاد المسلمين.

- **ثانيا: الصليبيين**: انتهز السلطان قلاوون فرصة انشغالهم بخلافاتهم الداخلية، وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، وهي آخر بلد كان قد تبقى للصليبيين، من إمارة أنطاكية. كذلك استغل السلطان قلاوون وفاة امير طرابلس بوهيموند السابع، وجهز جيشا كبيرًا يزيد على أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وسيطر علي طرابلس سنة ٦٨٨هـ.

– وبجانب تلك الجهود الكبيرة في حفظ البلاد من هجمات التتار والصليبيين، فإن الفترة التي حكم فيها السلطان المنصور قلاوون قد شهدت ازدهارا ملحوظا في فن البناء والعمارة، ومن ذلك تعميره للبيمارستان المنصوري، وإنشاؤه مدرسة باسمه، وظل في الحكم حتى وفاته سنة ٦٨٩هـ.

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ)، واستكمال الجهاد ضد الصليبيين:

تولى الأشرف خليل الحكم بعد وفاة أبيه، وواصل الجهاد الذي بدأه المنصور قلاوون ضد الصليبيين في الشام.

– وكان الصليبيون قد هللوا لوفاة المنصور قلاوون، وظنوا أن تلك الوفاة هي إرادة الله لإنقاذ عكا من مصيرها المحتوم. ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التي أعدها أبوه إلى الشام، وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التي اشتركت في حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة.

– وقد ضرب الأشرف خليل الحصار حول عكا سنة ٦٩٠هـ، وحشد الصليبيون ما بقى من قوتهم وفرحوا عندما وصل إليهم ملك قبرص هنري الثاني، وانضم إليهم بجنده وأمدهم بالمؤن والسلاح، لكنه لم يلبث أن عاد، وكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المدافعين غير أنهم أبدوا استماتة في الدفاع عن آخر معاقل الصليبيين الكبيرة في الشام، لكن رغم ذلك تجرعوا كأس الهزيمة لتتحرر عكا من أيدي الصليبيين على يد الأشرف خليل بن قلاوون وجيشه.

– وبعدها استطاع المسلمون السيطرة على مدينة صور دون مقاومة، كما سيطروا على صيدا ودمروا قلعتها، وكذلك مدينة حيفا وكذلك انطرطوس، وعثليث "عتليت"، وبذلك لم يبق للصليبيين في الساحل الشامي "حصن ولا معقل".

وهكذا زالت دولة الصليبيين بالشام.

– ولكن طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لا يعني نهاية قصة الحروب الصليبية؛ إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية.

- **مقتل الأشرف خليل**: على أن نجاح السلطان الأشرف خليل في طرد بقايا الصليبيين من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم، فتآمروا على قتله، ليلقى مصيره مقتولا في عام٦٩٣هـ

Scanned with CamScanner

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

– اتسمت الفترة التاريخية التي أعقبت اغتيال السلطان الأشرف خليل بالاضطراب السياسي، وقد تجلى ذلك الصراع في إقصاء الناصر محمد عن عرش الحكم مرتين في الفترة التي تولى فيها حكم البلاد، ليحل مكانه أحد الأمراء المتصارعين.

- **الفترة الأولى**: جلس الناصر محمد بن قلاوون على العرش خلفا لأخيه ولم يتجاوز عمره في الفترة الأولى لولايته سنة ٦٩٣هـ تسع سنوات. ولذلك لم يجلس الناصر محمد سوى عام واحد على العرش، ولم يكن له في هذا العام أمر ولا نهي على حد قول المقريزي، وقد خلعه أحد الأمراء الكبار "كتبغا"، وقد أمر بأن يذهب السلطان المعزول إلى الكرك، وانفرد هو بحكم البلاد.

– حكم كتبغا من عام٦٩٤هـ حتى عام ٦٩٦هـ، وقد ساءت في هذه الفترة الحالة الاقتصادية في البلاد بصورة ملحوظة، فكانت أيامه شر أيام من الغلاء والوباء والقحط، فتشاءم الناس منه وانتهز أمير آخر يسمى لاجين، واستولى على حكم البلاد، وحكم من عام ٦٩٦هـ حتى عام ٦٩٨هـ، ولم تسكن حالة الاضطراب في عهده، وانتهى الأمر بمقتله.

- **الفترة الثانية**: استدعي المماليك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ليتولى الحكم للمرة الثانية، وظل في الفترة من عام هذه ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ، لكن لم يسلم في هذه الفترة من تدخل كبار الأمراء، وسيطرتهم على مقاليد الأمور وقد أدى ذلك إلى اضطراب شئون الدولة والحكم، فعاد مرة أخرى إلى الكرك بعد أن خرج من مصر متظاهرًا بالحج.

- **الفترة الثالثة**: عاد الناصر محمد بن قلاوون مرة ليتولى حكم مصر وهي المرحلة الثالثة من مراحل حكم الناصر محمد، وهي تمثل ذروة استقرار الدولة المملوكية وأوج قوتها ازدهارها.

– وكان الناصر محمد قد أكتسب قوة الشخصية والحزم في إدارة الدولة، فلم ينازعه أحد من الأمراء شيئا من مظاهر السلطة التي قبض عليها هذه المرة بيد من حديد.

– لقد استمرت سلطنة الناصر محمد هذه المرة ٣١ عامًا لم تتعرض الدولة خلالها لأخطار خارجية تذكر، ولم تخض حروبا ترهق ميزانيتها أو تستنزف مواردها.

– وفي الوقت نفسه لم يهمل الناصر محمد الدفاع عن حدود دولته، بل دأب على إرسال الحملات لتأديب من يخترقها أو ينتهك حرمتها، أو يأتي تصرفات من شأنها الإخلال بأمن المناطق الحدودية.

– وتمتع المماليك بمكانة مرموقة في المجتمع الدولي و"خُطب للناصر محمد في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك غيره، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر وهادوه".

وفاة الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) وبداية مرحلة من تاريخ المماليك:

– الواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون جاءت إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بها مصر في عهد ذلك السلطان، وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء في الحكم أربعين سنة بعد وفاة الناصر نفسه، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت في أحد أولئك السلاطين، وإنما كان مرجع ذلك هيبة بيت قلاوون نفسه في قلوب المعاصرين، وهي الهيبة التي وضع أساسها المنصور قلاوون وازدادت نموا في عهد ولده السلطان الناصر محمد، وبعبارة أخرى فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة، والشهرة الواسعة التي تركها الناصر محمد في قلوب معاصريه.

– لقد تعاقب على كرسي السلطنة خلال تلك المرحلة عدد كبير من أبناء الناصر محمد ثم أحفاده، كانوا دُمى في أيدي كبار الأمراء يحركونهما وفق أهوائهم ومصالحهم، ويتدخلون في مصائرهم عزلاً وتعيينًا. كما اشتد الصراع بين أمراء المماليك واشتعلت العداوة بين أحزابهم المختلفة وغدت شوارع المدن المملوكية مسرحًا لقتال لا يكاد يهدأ بين أصحاب المصالح المتنافرة، وغرقت البلاد في حالة عظيمة من الفوضى والاضطراب.

– وقد اقترن بتلك الحالة انتشار الوباء الأسود سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م الذي ظلت الدولة تعاني آثاره المدمرة سنوات متطاولة، وتكرار الصليبيين هجماتهم على السفن والموانئ الإسلامية في مصر والشام. وفي غمرة هذا الاضطراب نجح الأمير برقوق في الاستيلاء على الحكم والجلوس على كرسي السلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م معلنًا بذلك قيام دولة الجراكسة.

س/ ظلل "تخير" الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- أطلق الأوروبيين على مستعمراتهم في آسيا وأفريقيا مصطلح (الشرق الادني أو الأوسط) وهو مصطلح حديث ظهر في ١٣ ق م.

Scanned with CamScanner

٢-.... هي الدولة العربية الوحيدة من الشرق الإسلامي التي تقع في إفريقيا.
٣- الموطن الأصلي للمماليك الأتراك هو(بلاد ما وراء النهر).
٤- كان الخليفة العباسي..... هو أول من شكل فرقة عسكرية من المماليك الأتراك.
٥- كانت ثقافة وتربية المماليك تعتمد على التعليم الديني و(العسكري).
٦- بلغ عدد مماليك الخليفة المعتصم بالله.....
٧- أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية هو(أحمد بن طولون).
٨- تزايدت أعداد المماليك الأتراك في مصر في عهد... .
٩- أكتمل النظام المملوكي بكل مقوماته في عهد(خلفاء صلاح الدين).
١٠- يعود الفضل للسلطان..... في تكوين فرقة المماليك البحرية سنة ٦٣٨هـ.
١١- أكثر السلاطين الأيوبيين اعتمادا على المماليك هو(الصالح نجم الدين أيوب) لدرجة أن معظم جيشه كان منهم.
١٢- كانت وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب في النصف من شعبان سنة....وهو في الرابعة والأربعين من عمره.
١٣- عهد الصالح نجم الدين قبل موته بالحكم من بعده لابنه تورانشاه الذي كان يقيم في حصن(كيفا).
١٤- نجح المماليك البحرية بقيادة القائد بيبرس في صد هجوم الصليبيين على مدينة .....
١٥- سقطت بغداد سنة (٦٥٦هـ) على يد المغول بقيادة هولاكو وذلك بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي.
١٦- ذكر المقريزي أن عدد من قتل من أهل بغداد على يد المغول..... ولم ينج من هذه المذابح سوى اليهود والنصارى.
١٧- بعد سقوط بغداد تقدم هولاكو بجيوشه إلى الشام سنة (٦٥٧هـ) وسيطر على مدن الشام ثم أتخذ من غزة قاعدة للهجوم على مصر.
١٨- انتهى حكم الأيوبيين في بلاد الشام سنة..... على يد المغول.
١٩- استجاب قطز لرغبة الشيخ (العز بن عبد السلام) بجمع الأموال من الأغنياء والقادة والأمراء قبل أن يقوم بجمعها من عامة الناس.
٢٠- قبل معركة عين جالوت نجحت طلائع جيش المماليك بقيادة.... في السيطرة على مدينة غزة.
٢١- وقعت معركة عين جالوت في شهر رمضان سنة (٦٥٨ هـ).
٢٢- اعتبر بعض الأوروبيين معركة..... أهم معركة في التاريخ على مر العصور.

الفصل الثاني دولة المماليك الجراكسة (البرجية) ٧٨٤-٩٢٣هـ

- ترجع نشأة المماليك البرجية إلى الجراكسة أو الشراكسة إلى السلطان المنصور قلاوون الذي حرص منذ سنة ٦٨١م على تكوين فرقة مملوكية جديدة من الجركس، وأسكنهم أبراج قلعة الجبل، وكان المنصور قلاوون يبذل الأموال العظيمة لمن كان يحضر هؤلاء من التجار، وبخاصة من بلاد الكرج (جورجيا حاليًا) موطن هؤلاء الجراكسة.وتقع بين بحر قزوين والبحر الأسود.
- وقد حرص السلطان قلاوون على تربية هؤلاء المماليك وتنشئتهم في أبراج قلعة الجبل، فنسبوا إليها، فقيل لهم: "البرجية"، وقد بدأت المماليك البرجية في مشاركة الحياة السياسية العامة في مصر زمن الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩- ٦٩٣هـ)، حيث سمح لهم بالنزول من القلعة في النهار، بشرط ألا يبيتوا إلا بها، وكذا فعل أخوه الناصر محمد بن قلاوون.
- وكان لهؤلاء المماليك البرجية دور مهم في الانتقام ممن قتل الأشرف خليل بن قلاوون واختيار أخيه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة ومع مرور السنوات ازداد نفوذ المماليك البرجية، وبخاصة سنة٧٠٨ هـ/١٣٠٨م حيث صار لهم صوت مسموع في اختيار السلطان المملوكي.
- وقد عَمَّرت دولة المماليك الجراكسة أكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنة (٧٨٤- ٩٢٣هـ)، تعاقب على عرش السلطة خلالها ثلاث وعشرون سلطانا.
- وتختلف الدولة المملوكية الثانية عن الدولة المملوكية الأولى في نظام ولاية العرش. ففي الوقت الذي نجح فيه مبدأ الوراثة في حالات كثيرة خلال الدولة المملوكية الأولى ولاسيما في أسرة قلاوون غلب على الدولة الثانية قلة احترام هذا المبدأ أو الاعتراف به.
- على أن الدولتين تشابهتا في عدم الاقتناع بهذا المبدأ، ولم يرض به الأمراء في الحالات التي طبق فيها إلا بصورة مؤقتة من باب الاحترام لسادتهم المتوفين ورعاية لحقهم عليهم.
- كما أن بقاء ابن السلطان المتوفى على العرش أو عودته إليه أو احتفاظه به إنما يرجع إلى شخصيته أو كثرة أنصاره أو إلى عدم الاتفاق بين الأمراء المتنافسين على واحد من بينهم ان يصبح سلطانًا.

Scanned with CamScanner

الجراكسة وهجمات تيمورلنك في الشام:

– يعد السلطان برقوق (٧٨٤–٨٠١هـ) أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية، وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراسكة، وقد لبث برقوق في الحكم سبع سنوات ثم تعرض لثورة كبيرة من المماليك، وخرجت مدن الشام عن طاعته، مما مكن الأمراء من عزله ونفيه إلى الكرك عام ٧٩١هـ/ ١١٨٩م، لكنه تمكن من العودة إلى الحكم مرة أخرى في عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م، وظل في الحكم حتى عام ٨٠١م، وفي تلك الفترة تخلص برقوق من خصومه، وقضى على نفوذ المماليك الأتراك بإبعادهم عن وظائفهم ومصادرة إقطاعاتهم، كما نجح في كسر شوكة العربان وقمع تمردهم ومحاولاتهم الخروج عليه.

- **خطر تيمورلنك**: شهد عهد السلطان برقوق بداية خطر كبير لا يقل بحال عن الخطر المغولي وهو خطر اكتساح جيوش تيمورلنك لبلاد الشرق الإسلامي، وتهديد الشام تهديدًا مباشرا من قبل هذه الجيوش.

– ظهر تيمورلنك في بلاد ما وراء النهر، وتحديدًا في سمرقند، وتمكن تيمورلنك من الجلوس على عرش إحدى دول المغول في هذه البلاد معلنا قيام دولة هي الدولة التيمورية. والحقيقة أن تيمورلنك لم يكن مغولي الأصل من ناحية الأب، فهو يرجع إلى أصول تركية لقبيلة تسمى "بَرْلاس"، وأن أمه – فقط – هي التي تنتمي إلى المغول.

– وقد تدرج تيمورلنك في الوظائف في بلاد سلاطين المغول، حتى صار من جملة الأمراء. وبعد موت آخر الحكام المغول في بلاد ما وراء النهر جلس على عرش البلاد من عام٧٧١هـ. ومنذ ذلك التاريخ وحتى وفاته في عام ٨٠٨ هـ، مضى بجيوش جرارة ليستولي على كافة الأقاليم والدول التي تصل إليها هذه الجيوش في شرق الدنيا وغربها، وكل هذه التحركات كانت مصحوبة بالخراب والدمار والقتل والتشريد للبلاد والعباد، فلم تطأ هذه الجيوش أرضا إلا وتفكت فيها الدماء، ونهبت الأموال، وهتكت الأعراض وخربت العمران، وأحرقت الزروع والثمار، وشيدت بروجا من جماجم القتلى.

– وقد استطاع تيمور لنك في تلك الفترة أن يبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر، وكافة أقاليم إيران، والعراق، وهزمت جيوشه العثمانيين في موقعة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، واستولى على أكثر بلاد الهند، ولم يقنع بكل هذه البلاد فأرسل جيوشه تجاه الشام للاستيلاء عليها.

٢٠١٢ – اقتحمت جيوش تيمورلنك مدينة حلب في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، وأشعلت فيها النيران وظلت أربعة أيام تعيث فسادًا في المدينة، فقتلت الأطفال، وأسرت النساء، وارتكبت الفواحش.

– ثم غادر تيمورلنك وقواته حلب بعد أن أقاموا فيها شهرا، واستطاع ابنه ميرانشاه الاستيلاء على حماة، وفعل فيها ما فعلته جيوش أبيه في حلب، كذلك استولت جيوش تيمور على حمص وبعلبك.

- **رد فعل المماليك**: اتسم موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك في القاهرة بالعجز الشديد والقصور عن الإدراك السليم لجسامة الخطر الذي يهدد سلطنة المماليك بأسرها.

– كذلك استطاعت جيوش تيمورلنك الاستيلاء على دمشق، وخربتها كما خربت غيرها من مدن الشام الكبرى، وأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر جمع فيها كثيرا من أموالها، فضلا عن أولي الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات والعلماء والتجار، وبعث بهم إلى سمرقند.

ونتيجة لذلك رضخ السلطان الناصر فرج بن برقوق لشروط تيمورلنك في إعلان الصلح بينهما، فتم الصلح في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، ووصل الأمر بالسلطان فرج أن رضي بأن تسك العملة باسم تيمورلنك إعلانا على تبعيته له. لكن كانت وفاة تيمورلنك في عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م حالت دون أن يتمكن من إكمال سيطرته على مصر، كما كان لانشغال أبنائه من بعده بالصراع على الحكم أثر في تقليل خطر التيموريين على دولة المماليك في مصر والشام.

فتح جزيرة قبرص ومحاولات فتح رودس:

– كانت جزيرتا قبرص ورودس بحكم موقعهما القريب من بلاد الشام قاعدتين مهمتين من قواعد الصليبيين كما كانتا مركزا مهما لإمدادهم بالمؤن والسلاح، فلما تمكن المسلمون من تطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي أصبحت قبرص ورودس منطلقا لعمليات القرصنة والتخريب ضد سفن المسلمين العابرة في البحر المتوسط، وكذلك ضد الموانئ الإسلامية في مصر والشام، وبذلك أصبحت تجارة المسلمين في البحر المتوسط تحت تهديد الصليبيين. وهذا يعني انهيار اقتصاد المسلمين وافتقارهم وضعفهم مما يمنع الصليبيين فرصة التفوق عليهم ومعاودة غزو أراضيهم.

- **الأشرف برسباي وفتح قبرص**: كان من غير اللائق أن يصمت المماليك إزاء القرصنة الصليبية التي تخرج من قبرص للإغارة على السفن والموانئ الإسلامية، ولذلك عزم السلطان المملوكي الأشرف برسباي على فتح جزيرة قبرص، فأرسل إليها ثلاث حملات تعد من أعظم الحملات والعمليات الحربية في عصر المماليك البرجية.

- **الحملة الأولى سنة ٨٢٧هـ**: كانت حملة استكشافية عادت بغنائم ثمينة وأحرقت بعض السفن الصليبية.

- **الحملة الثانية سنة ٨٢٨ هـ**: وتمكنت من إحراق بعض السفن والاستيلاء على بعض الحصون.

- **الحملة الثالثة الكبري في عام ٨٢٩هـ**: وقد تمكنت من إلحاق الهزيمة بالقبارصة الصليبيين، وقد وقع ملك قبرص "جاتوس" نفسه أسيرا في أيدي المسلمين، وأصبحت قبرص جزءا من دولة المماليك البرجية. وكان لهذا النصر فرحة غامرة في مصر جعلت السلطان برسباي

Scanned with CamScanner

نفسه يبكي متأثرا بهذه الفرحة والناس يبكون لبكائه ولفرحهم بهذا النصر الكبير.

– وقد ظلت قبرص تابعة لسلطان المماليك، وقام الأشرف برسباي بتعيين حاكمها السابق واليا عليها تابعًا للمماليك وذلك بعد أن أفرج عنه سنة ٨٣٠هـ/١٤١٦م بعد دفع فدية كبيرة، واستمرت تابعة المماليك حتى عام ٨٩٥هـ /١٤٨٩م حيث آلت إلى البندقية، وإن كانت الجزيرة قد استمرت إلى القاهرة عام٩٣٣هـ/١٥١٧م أي حتى سقوط المماليك، واستولى العثمانيون على مصر والشام حينها أرسلت الجزية إلى السلطان العثماني في الأناضول.

- **السلطان جقمق ومحاولة فتح رودس**: بقيت رودس شوكة في جنب المسلمين تؤدي دورها العدواني ضد الموانئ الإسلامية وضد سفن المسلمين المارة من البحر المتوسط حتى تولى السلطان جقمق الذي حكم من ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م حتى عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، فعزم على الاستيلاء على هذه الجزيرة وبخاصة أنها كانت القاعدة الأخيرة للصليبيين في البحر المتوسط.

– وقد خرجت ثلاث حملات لفتح هذه الجزيرة أيضا، فخرجت الأولى في عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م لكنها لم تحقق النصر على الصليبيين لعلمهم بقدومها واستعدادهم لها.

– وخرجت الثانية في عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م، وتمكنت من تخريب عدد من قراها وأسر بعض جنودها، ثم الثالثة في عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، وحاصرت الجزيرة حصارا شديدا، ودار قتال عنيف بين المماليك والصليبيين، لكن المدينة صمدت أمام الحصار، واستعصى على المسلمين اقتحامها، ولم يلبث ان ساء موقف الحملة المملوكية لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوروبية إلى رودس، فعادوا إلى مصر دون أن يتموا فتح الجزيرة.

السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢هـ/ ٩٠١هـ):

– يعتبر قايتباي من ابرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة؛ لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاما، وهي مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد. وفي تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباي أنه أمهر السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب، وأوسعهم خبرة بشئون العالم، وأكثرهم مقدرة وشجاعة.

– حقيقة إنه تعسف – مثل غيره من السلاطين– في جمع الأموال وفرض الضرائب؛ ولكن آثاره ومنشآته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال في المنشآت العامة أو في حروبه الواسعة. ويعتبر مسجد قايتباي بالقاهرة والوكالات التي شيدها من أجمل المباني العربية في ذلك العصر.

– وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والأسفار، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين. وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمدارس والتحصينات وغيرها من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية.

– على أن هناك مهامًا أخرى واجهت السلطان قايتباي أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائما مصاعب جمة لسلاطين المماليك الجراكسة.

– وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركمان وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم، وخاصة بعد القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م.

– لكن عصره اتسم ببعض السلبيات منها الإكثار من جمع الضرائب، وتكليف الناس بنفقات الحروب، كذلك كان السلطان محبا لجمع المال، ولولا هذه السلبيات لكان أفضل ملوك الجراكسة على الإطلاق، كذلك ابتليت البلاد في عهده بانتشار الوباء الذي حصد أرواح الكثيرين، ومعاناة البلاد من القحط وانتشار الطاعون في الماشية، وهذا أدى إلى ندرة الأقوات وغلاء الأسعار.

السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦- ٩٢٢هـ

– أثبت السلطان قانصوه الغوري أنه رجل قوي صلب رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره عندما ولي منصب السلطنة؛ ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستحكمة التي كانت تعانيها خزانة الدولة المفلسة.

– وقد اتبع السلطان الغوري لإنعاش الخزانة العامة سياسة تعسفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك؛ ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة.

– وقد أنفق تلك الأموال – التي جد في جمعها – على مماليكه الذين أكثر الغوري من أعدادهم عن طريق الشراء، كما شيد مسجدا ومدرسة في الحي سمي بعد ذلك باسمه. وهو حي الغورية. كذلك اهتم السلطان الغوري بطريق الحج، فأقام به كثيرًا من الاستراحات والآبار. هذا فضلا عن حفر بعض الترع وتحسين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة. ومن المعروف عن السلطان الغوري أنه عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره، فأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمهم من شعراء وأدباء وعلماء.

Scanned with CamScanner

– ولم تحدث قلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغوري، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان.

- **خطر البرتغاليين**: فكان الخطر الكبير الذي هدد مصالح البلاد في ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغوري آتيا من ناحية البحر الأحمر؛ ذلك أن "فاسكو دي جاما" إكتشف طريق رأس الرجاء الصالح في ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا سنة ٩٠٦ /١٥٠٠م، مما هدد مركز مصر الاقتصادي كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي، وآذن بانتقال زمام التجارة من أيدي المماليك إلى أيدي الأوروبي البرتغاليين. وإزاء هذا الخطر الجسيم استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغوري الذي رأى في الخطر الجديد تهديدًا مباشرا للمورد الأساسي الذي اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها.

– وقد لجأ الغوري أولا إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بسوء للمسلمين في الشرق والغرب. ويبدوا أن القوى الأوروبية لم تتأثر بذلك التهديد فيما جعل الغوري يشيد أسطولا جديدًا في البحر الأحمر..

– انتصر المماليك في أول الأمر سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. ولكن لم يلبث أن ثأر البرتغاليون لأنفسهم في العام التالي في موقعة "ديو" البحرية بل لقد هاجم البرتغاليون "عدن" نفسها سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب الأمر الذي أدى إلى ذبول المماليك ذبولا سريعا.

- **خطر العثمانيين**: واجه السلطان الغوري خطرًا أكبر تمثل في رغبة العثمانيين في التوسع باتجاه الشرق؛ وذلك بالاستيلاء على دول المماليك في الشام ومصر. وقد أدرك السلطان الغوزي أن السلطان سليم الأول يكمل استعداداته الحربية رغبة في السيطرة على دولته فأخذ يعد العدة لمواجهة هذا العدوان المرتقب، ولم يستمع لصوت الخيانة المتمثل في "خاير بك" نائب حلب، وكان قد أرسل رسالة للغوري يخبره فيها بأن السلطان سليم لا يتأهب لحربه، وأن استعداداته موجهة لحربه مع الصفويين في إيران.

٢ - **معركة مرج دابق**: خرج الغوري على رأس جيشه باتجاه حلب، ودارت الحرب بينه وبين جيوش العثمانيين بقيادة سليم الأول في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م. وفيها ظهرت خيانة خاير بك الذي أحدث فتنة في الجيش ونادى أتباعه قائلين للجنود: "الفرار الفرار

• فإن السلطان سليما أحاط بكم وقتل الغوري، والكرة علينا.

٢ – حدثت هذه الخيانة والمماليك يقاتلون بشجاعة نادرة لدرجة أن السلطان سليم العثماني قد فكر في التقهقر لإعادة تنظيم صفوفه، ولم تفلح نداءات السلطان في الجيش بالصبر وعدم الفرار في تغيير الموقف، فقد أدت الخيانة إلى فرار الكثير من الجيش المملوكي. لكن السلطان

• الغوري ظل صامدًا يقاتل في شجاعة.

– في هذا الوقت جاء أحد الأمراء إلى السلطان وقال له: "يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب، فلم يتحمل السلطان قسوة الهزيمة ومرارة الفرار من الحرب فأصيب بفالج وسقط من فوق فرسه ميتا" وقد أعقب هذه الموقعة فرار جيش المماليك عائدًا إلى القاهرة، لتدخل الشام تحت السيادة العثمانية بعد أن كانت جزءًا مهما من دولة المماليك.

طومان باي وسقوط دولة المماليك:

– بعد أن وصلت أنباء الهزيمة ووفاة السلطان الغوري إلى القاهرة سارع المماليك إلى اختيار طومان باي الثاني سلطانا على البلاد، وتلقب بالملك الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام، وتولى السلطنة في ظروف تاريخية بالغة الصعوبة.

– كان رأي طومان باي أن يهاجم العثمانيين في وسط الطريق، ولا يدعهم حتى يصلوا إلى القاهرة، لكن إلحاح الأمراء جعله يطرح هذه الخطة جانبا، ويستجيب لرغبتهم في انتظار العثمانيين، ولذلك لم يجد الجيش العثماني أية مقاومة في طريقه إلى مصر، وكان المماليك قد جهزوا الجيش وانتظروا في مكان يسمى "الريدانية " بجوار القاهرة.

- **معركة الريدانية**: خلالها أظهر طومان باي شجاعة لا تقل عن شجاعة الغوري في مرج دابق، ولكن فردًا واحدًا مهما بلغت إرادته وشجاعته يمكنه أن يتغلب على جيش كبير متماسك، فحلت الهزيمة بالمماليك، وفر طومان باي ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها.

لكن العثمانيين انتصروا عليه في هذه المعارك أيضا فاضطر للفرار والاختباء عند أحد مشايخ الأعراب في منطقة "البحيرة" واسمه "حسن مرعي"، لكن هذا الشيخ نسي الصداقة القديمة، وسلمه للعثمانيين، وأعدم طومان باى شنقا على باب زويلة في عام ٩٣٣هـ/١٥١٧ لينتهي حكم المماليك في مصر وتطوى صفحته في التاريخ.

- أسباب سقوط دولة المماليك:

• انقسام المماليك على أنفسهم وكثرة شغبهم وتمردهم على سلاطينهم.

• الضربات الاقتصادية التى لحقت بالمماليك إثر حركة الكشوف البرتغالية وتحول مسار التجارة بين أوروبا وبلدان الشرق إلى طريق ر

Scanned with CamScanner

الرجاء الصالح وحرمان المماليك من أعظم مواردهم المالية.

• الخيانة في داخل صفوف المماليك ممثلة في خاير بك وغيره من الخائنين، واتصالهم بالسلطان العثماني، وكشف خطط المماليك له، والانسحاب في وقت الحرب، كل ذلك كان من أكبر العوامل التي أدت إلى انكسار المماليك.

• الفرق الكبير بين التسليح الذي كان عليه الجيش العثماني والذي كان عليه الجيش المملوكي، فقد كان الجيش العثماني أحدث تسليحًا وأدق نظاما وأكثر طاعة والتزاما، وكانوا يستعملون البنادق والأسلحة النارية، أما المماليك فكانوا تلك الأسلحة ويعدون استخدامها جبنا، ويعتزون بفروسيتهم وإجادتهم للسيف والرمح، وكان طومان باي يتحدى السلطان سليم بأن يأمر جنوده بترك البنادق والمنازلة بالسيف ولا شك أن الفرق الهائل في التسليح رجح كفة الجيش العثماني في صراعه على المماليك.

الفصل الثالث صور من حضارة المماليك ونظمهم

– لم يقتصر دور المماليك في الشرق الإسلامي على الدور السياسي والعسكري، وإنما تعداه إلى الدور الحضاري الذي يشهد به الرحالة الذين زاروا مصر في تلك الفترة، ويشهد بة التراث الضخم من الموسوعات الدينية والتاريخية والأدبية التي تركها علماء دولة المماليك. كذلك تشهد به المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وكتاتيب، وغيرها من المنشآت التي تؤكد أن عصر المماليك كان من أزهى عصور العمارة والفنون الإسلامية.

الإدارة ونظم الحكم والقضاء:

- **السلطان**: بلغت النظم الإدارية في دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والإحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين، ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد.

- **نائب السلطنة**: أول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان في شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة. ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الايمن في تصريف شئون الدولة بل "السلطان الثاني" على قول القلقشندي، ذلك أنه اشترك مع السلطان في إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات، فضلا عن تعيين كبار الموظفين، وكانت نيابة السلطنة على نوعين في عصر المماليك، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة، وهو الذي ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته في مصر، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط في حرب أو حج أو غير ذلك.

- **الأتابك**: وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك، وهو القائد العام للجيش المماليكي، وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصي، ثم أصبح من ألقاب التشريف التي تخلع على كبار الأمراء حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر.

ولا أدل على نفوذ الأتابكة وقوتهم من أن كثيرا منهم وصلوا إلى دست السلطنة، كما فعل الأمير زين الدين كتغبا المنصوري. عندما استبد بالسلطان الناصر محمد في سلطنته الأولى، أعلن نفسه سلطانا سنة ٦٩٤هـ.

- **منصب الوزير**: تضاءلت وظيفته في العصر المملوكي نتيجة لوجود وظيفة نائب السلطنة بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب السلطنة والإشراف على شئون الدولة المالية.

س/ في عصر المماليك عظمت وظيفة الوزارة (خطأ).

- **الإدارة المحلية في المدن والأقاليم**: تولى الإشراف عليها عدد كبير من الولاة اختيروا دائما من بين الأمراء. وكان منصبه يشبه منصب المحافظ في عصرنا الحاضر. وكان عددهم عشرة في الوجه البحري، وثمانية في الوجه القبلي. وفي عصر المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين البحري والقبلي مهمته الإشراف على جميع الولاة والعمال الذين يقومون بإدارة شئون الوجه التابع له.

- **الدواوين**: كان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة المتعددة. وكان أهم هذه الدواوين: ديوان الجيش ومهمته الإشراف على طوائف الجند، وتوزيع الإقطاعات عليهم، وقد تمتع هذا الديوان بأهمية كبرى في دولة المماليك؛ وذلك للصبغة الحربية التي اصطبغت بها الدولة. وديوان الإنشاء ومهمته تلقي الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها. وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد وهي إدارة ضخمة في عصر المماليك تولت البريد القادم إلى الدولة والمرسل منها.

– أيضا من الدواوين المهمة في ذلك الوقت ديوان الأحباس أو الأوقاف. ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا، كما يشرف على الأراضي والعقارات الموقوفة عليها وهناك ديوان النظر: وقد اختص بمراقبة حسابات الدولة والإشراف

Scanned with CamScanner

على إيراداتها ومصروفاتها، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين. وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدا في حين يصرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع.

- **القضاء والعدالة**: فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم. وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو قيامه بتعيين أربعة من القضاة يمثلون المذاهب الأربعة. وكان للجيش الملوكي قضاة مستقلون. يسمون "قضاة العسكر" وهم مختصون بشئون الجند، وليس لهم ولاية على غيرهم، كماكانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين، وكانوا يحضرون بدار العدل مع القضاة الأربعة، ولكن كان مجلسهم دون هؤلاء القضاة.

– وقد وجدت محكمة عليا تُعقد في دار العدل برئاسة السلطان، وعُرفت باسم محكمة المظالم. ومهمتها النظر في القضايا التي اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادي، أو تلك التي تنشأ بين الحكام والمحكومين.

س/ عين أربعة ينتسبون للمذاهب الأربعة.....

- **الظاهر بيبرس.**

الأوضاع الاقتصادية في مصر زمن المماليك:

(١) **الزراعة**: كان النشاط الاقتصادي الأبرز في مصر في ذلك الوقت هو الزراعة. وقد أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد بوصفها عماد الثروة القومية؛ لذلك عنوا بها عناية فائقة؛ فأنشأوا الجسور، وشقوا الترع لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها.

- أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر، فمنها:

- **القمح**: الذي كان محصوله يفيض حاجة البلاد أحيانا. وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه.
- **الكتان**: كان يتم تصدير كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة.

وكذلك اشتهرت مصر بزراعة قصب السكر، وعدد من أنواع الفاكهة والخضروات لسد حاجة السوق المحلية.

(٢) **الثروة الحيوانية**: أهتم السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثروا من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها.

(٣) **الصناعة**: شهدت ازدهارا ملحوظا وتنوعا كبيرا في عصر سلاطين المماليك. ولأن دولة المماليك كانت دولة حربية فإنه لا عجب أن تحتل الصناعات الحربية مكانا بارزا في النشاط الصناعي لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح زخر بالأسلحة المتنوعة، وبالصناع الذين كانوا يصنعونها.

كذلك حرص السلاطين المماليك على الاهتمام بصناعة السفن؛ وذلك لرغبتهم في إنشاء أسطول بحري قوي يحمي شواطئ دولتهم الواسعة

- أما الصناعات المدنية: فكانت متعددة وعلى جانب كبير من الرقي. وكان من أهم هذه الصناعات: صناعة المنسوجات المتنوعة والتي امتازت بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الخامات ومتانة النسيج.

(٤) **التجارة**: كانت التجارة لها المقام الأول في النشاط الاقتصادي، وكانت المصدر الأول للثروة الهائلة، وقد أدرك سلاطين مصر ذلك فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها، وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة كالفنادق والوكالات والأسواق وغيرها.

وما يقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية؛ إذ اشتهرت مدن مصر الكبرى بأسواقها الحافلة بالبضائع. وقد كان للمحتسبين دور مهم في إحكام الرقابة على هذه الأسواق لمنع التلاعب في الأسعار والأوزان وأصناف البضاعة.

ما السبب الذي جعل لمصر مكانة اقتصادية كبرى في العالم في عصر المماليك ؟

- موقع مصر المتميز.
- الطرق التجارية الأخرى أصبحت خطيرة وغير مأمونة.

الحياة الاجتماعية في عصر المماليك:

تمثلت طبقات المجتمع المملوكي في التالي:

- المماليك (الأمراء والسلاطين) جعلوا هذه المناصب القيادية حكرًا عليهم.
- أهل العمامة (المعممين) وهم الكتاب والعلماء والفقهاء والأدباء، ومن أهم السلاطين الذين قدروا العلماء: (السلطان بيبرس –السلطان برقوق – السلطان لاجين).
- كبار التجار والصاغة.

Scanned with CamScanner

- الصناع وأرباب الحرف
- طبقة العوام (الزراع – المكارية).....

س/ كيف كان الناس يعيشون في القاهرة في هذا الوقت؟

– عاشوا حياة تتسم بالبذخ، والرحالة ابن بطوطة قال (هي أم البلاد في كثرة العمارة والحسن والنضارة).

الحياة الدينية في عصر المماليك

– شهدت مصر نشاطًا ديني ملحوظ نتيجة وجود الخلافة العباسية في مصر، واهتمام المماليك بالعمارة الإسلامية وتوصية السلاطين نحو الدين ومحاربة الشيعة.

- **انتشار التصوف في مصر:** كان المناخ يسمح بانتشار التصوف مثل (الحسن الشاذلي– أبو العباس المرسي – السيد البدوي) وقد ساعد في انتشاره:

- اعتقاد السلاطين في الصوفية مثل بيبرس وبرقوق.
- انتشار المؤسسات الصوفية (الخانقاه)

الحياة العلمية والثقافية في عصر المماليك

– أهتم المماليك بالمعارف وانتشرت المؤسسات العلمية، ومن أشهر علماء ومؤرخين العصر نجد: المقريزي صاحب (السلوك/ إغاثة الأمة)، والقلقشندي، والعسقلاني .

س/ ظلل "تخير" الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- يعود الفضل للسلطان المنصور قلاوون في تكوين فرقة المماليك الجراكسة (البرجية) سنة (٦٨١هـ).
٢- يعود أصل المماليك الجركس إلى.....
٣- بلغ عدد المماليك الجركس في أواخر أيام السلطان قلاوون حوالي (٣٧٠٠ مملوك).
٤- عرف المماليك البرجية بذلك الاسم نسبة إلى....
٥- بدأت مشاركة المماليك البرجية في الحياة السياسية في مصر منذ زمن (الأشرف خليل) الذي سمح لهم بالنزول من القلعة في النهار بشرط إلا يبيتوا بها وكذلك فعل أخوه الناصر محمد.
٦- ازداد نفوذ المماليك البرجية في مصر وأصبح لهم صوت مسموع في اختيار السلطان منذ سنة.... عندما أعادوا الناصر محمد إلى الحكم.
٧- يبدأ حكم دولة المماليك الجراكسة (البرجية) سنة (٧٨٤ هـ) على يد الظاهر برقوق.
٨- ينتمي تيمورلنك لقبيلة تركية تسمى....
٩- ظهر تيمورلنك في بلاد ما وراء النهر وتحديدًا في سمرقند وتمكن من تكوين الدولة التيمورية سنة (٧٧١هـ).
١٠- جمع تيمورلنك أصحاب الحرف والصناعات والعلماء والتجار من مدينة.... وبعث بهم إلى سمرقند.
١١- في سنة (٨٠٤هـ) تم الصلح بين الناصر فرج وتيمورلنك بشرط أن يعلن السلطان فرج تبعيته لتيمورلنك ويسك العملة باسم تيمورلنك.
١٢- حالت وفاة تيمورلنك سنة.... دون سيطرته على مصر.

س/ ظلل "تخير" الإجابة الصحيحة فيما يلي:

اتسم موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك في القاهرة بالعجز الشديد أمام خطر تيمورلنك.	(✓)
تمكن ميرانشاه بن تيمورلنك من الاستيلاء على حماة ونشر فيها القتل والتدمير.	
ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب بعد معركة ذيو البحرية وفقد المماليك أهم موارد دولتهم.	(✓)
نجح قانصوه الغوري في علاج الأزمة الاقتصادية في مصر ولكن على حساب الشعب المصري الذي ازدادت حالته سوء.	
فرض السلطان قانصوه الغوري ضرائب على الأوقاف الخيرية.	(✓)
تلاعب السلطان قانصوه الغوري في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق وهو أمر أضر التجار.	
في عصر المماليك تدهورت وظيفة الوزارة.	(✓)

Scanned with CamScanner

طلب قانصوه الغوري من البابا منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بسوء للمسلمين في الشرق والغرب ولكنه لم يستجب.	
كان من المألوف في عصر المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل على عرش السلطنة.	(✓)
رفض بيبرس محاولات وفود الإمارات الصليبية لطلب السلام والمهادنة.	
لم يهمل الناصر محمد أمر الدفاع عن حدود دولته وأرسل عدة حملات لتأديب كل من يحاول اختراقها.	(✓)

الباب الثاني: (العصر العثماني): (٦٩٩-١٣٤٠هـ)

الفصل الأول (قيام الإمارة العثمانية واتساع حدودها):

– اقتحم السلاجقة آسيا الصغرى، وخاضوا معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين في تلك البقاع وطرد سكانها الروم من آسيا نهائيا وقد نجح السلاجقة في ذلك فأوقعوا سنة٤٦٣هـ/١٠٧١م هزائم جائحة بالجيوش البيزنطية في موقعة ملاذكرد، واستولوا على معظم آسيا الصغرى.

– وقد كان هذا التصرف مثيرًا لأوروبا، فكان من العوامل التي سببت الحروب الصليبية هذا من جهة ومن جهة أخرى وضعت بذور الدولة العثمانية في آسيا الصغرى.

- **أصل العثمانيين**: تُجمع المصادر التاريخية على أن أصل العثمانيين يعود إلى قبيلة "قايي" إحدى قبائل الأتراك الغز الذين كانوا يستوطنون إقليم تركستان "آسيا الوسطى"، وقد هاجرت هذه القبيلة من موطنها تحت قيادة "أرطغرل بك" لتستقر في الأناضول علي حدود الدولة السلجوقية.

٢ أرطغرل:

– نالت هذه القبيلة ثقة السلطان السلجوقي (علاء الدين) فأقطعهم منطقة حدودية تقع بين دولته وبين الدولة البيزنطية وهى سهول سوكوا لتكون موطنا لهم، وكان ذلك في عام ٦٢٨هـ.

٢ – غير أن أرطغرل كان ذا طموح سياسي بعيد، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعها إياه السلطان علاء الدين، ولم يقنع باللقب الذي ظفر به وهو "محافظ الحدود" بل شرع في مهاجمة الدولة البيزنطية باسم السلطان علاء الدين، ونجح في التوسع حيث ضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة إسكيشهر. وبذلك فتح لأبنائه من بعده الطريق لتكوين الدولة العثمانية، وقد ظل زعيما لأسرته حتى توفي عام ٦٨٠هـ وعمره ثلاثا وتسعون عاما.

عثمان بن أرطغرل وفكرة الجهاد التي قامت عليها الدولة:

تولى عثمان بك الزعامة بعد وفاة أبيه وهو في سن الرابعة والعشرين، وإليه نسبت الدولة.

– وكان لقبه الذي لازمه في حياته هو "بك" أو أمير، فضلا عن بعض الألقاب الأخرى مثل فخر الدين، ومحيي الدين، ولم يطلق عليه لقب "خان" أو "سلطان".

لكن عهده اتسم بجملة من التحولات المهمة للعثمانيين كان من أبرزها:

(١) **التحول من الوثنية إلى الإسلام**: حيث أصبح الإسلام عقيدة دينية رسمية لهم منذ عهد الأمير عثمان الذي كان شديد الحرا للدين الإسلامي، والحقيقة أن مسألة التحول إلى الإسلام فيها خلاف بين المؤرخين، فيرى بعضهم أن القبيلة كانت مسلمة قبل أن تأتي الأناضول، ويرى بعضهم أنها اعتنقت الإسلام في عهد عثمان بن أرطغرل.

– ومهما يكن من أمر، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول – وهي دولة مسلمة– كانت عاملا مهما ساعد ع اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة. والحقيقة أن دخول العثمانيين في الإسلام كان له أثر كبير في مستقبلهم، فقد عبأهم الإس بشعور ديني متدفق أجتمع مع روحهم العسكرية الطاغية.

– وقد تجلى أثر تلك الحراسة للإسلام في إتباعهم سياسة الفتح التي ترتكز على مفهوم الغزو والجهاد، وفي هذا السياق يقول المؤرخ التر الدكتور خليل إينالجيك: "كان مثال الغزو أو الجهاد عاملا مهما في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها".

– ولذلك لا غرابة في أن المؤرخين الأوروبيين أنفسهم يعترفون بالأثر الذي تركه الإسلام في نفوس العثمانيين وجعل قلوبهم تشتعل بحا دينية متأججة لنشره والذود عنه، ومن خلال ذلك تمكن الأتراك العثمانيين في بدايتهم المبكرة وهم لا يزالون مجرد جماعة بدائية قليلة الـ ضئيلة الموارد من إنزال الهزائم الساحقة بالدولة البيزنطية العريقة.

Scanned with CamScanner

– واتساقا مع الروح الإسلامية التي حركت فتوحات العثمانيين فإن هدفهم من هذا الجهاد لم يكن تدمير الشعوب التي خضعت لحكمهم، بل قاموا بحماية كنائسهم وحضاراتهم، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية، والعيش بحرية حسب أحكام شريعتهم، "ونظرا لأن مجتمع العثمانيين كان من المجتمعات الحدودية، حيث كان يتم الاختلاط بحرية مع المسيحيين.

(٢) **استقلال عثمان بإمارته في الأناضول**: انطلق الأمير عثمان في غزواته في الأناضول، ولم يمض عشر سنوات على حكمه حتى فتح "قره جه حصار" القريبة من إسكيشهر سنة ٦٨٧هـ، وجعلها قاعدة لأسرته، وأمر بتلاوة الخطبة باسمه مسبوقا بالخليفة العباسي في مصر وبسلطان السلاجقة. كذلك أغار على مقاطعة "بيثينيا" البيزنطية واستولى على جزء كبير منها.

– وقد شهد عام ٦٩٩هـ نهاية الدولة السلجوقية في الأناضول على يد المغول وانفرطت دولتهم في آسيا الصغرى، حيث استقل الأمراء التابعون لهم، ومن ثم سارع عثمان بالاستقلال بإمارته استقلالا تاما، وبسط نفوذه وسلطانه على الإمارات التركية الأخرى بآسيا الصغرى.

وبعدها واصل الأمير عثمان سيطرته على أقاليم الأناضول ووصل إلى مدخل البسفور والجزر الواقعة في بحر مرمرة، واستولى على عدة قلاع بيزنطية وكان ابنه "أورخان" يتولى مهمة هذه الفتوحات، وتوج انتصاراته بالاستيلاء على مدينة "بُرسه/بُورصة"، وظلت تقاوم جيش العثمانيين لمدة عشر سنوات حتى سقطت في عام ٧٢٦هـ، وكان الأمير عثمان وقتها على فراش الموت، وتوفي في بلدة (سوكود)، ونقل ابنه رفاته بعد ذلك إلى (بورسه) عاصمة العثمانيين الجديدة.

ويتمثل الدور التاريخي الذي قام به عثمان في وضع بذور أو نواة الدولة الجديدة.

السلطان أورخان وبداية الفتوحات في أوروبا

وقعت مهمة تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية على كاهل ابنه "أورخان"، وحفيده "مراد الأول"، وقد نجحا في ذلك.

– وقد اشتهر أورخان في عهد أبيه كمحارب على درجة عالية من الكفاءة، وقد تولى الإمارة وعمره ٤٣ سنة، وبعد وفاة أبيه اتخذ "بورصة" قاعدة لدولته ليصبح بعدها سلطانا وملكا حقيقيا يتمتع باستقلال تام، وبخاصة بعد أن أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعي للعرش السلجوقي الذي خلا بعد هجمات المغول، وتلقب بعدة ألقاب منها: سلطان، وسلطان الغزاة، والغازي بن الغازي، وشجاع الدين، وسيف الدين.

لقد ورث أورخان عن والده دولة ليست لها قوانين محددة، أو حدود واضحة، أو عملة خاصة بها.

– فكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام؛ ولهذا أمر بسك عملة عثمانية فضية لتحل محل العملة السلجوقية، وواصل جهود أبيه في توسعة حدود دولته الوليدة، ولذلك عُدَّ أورخان المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية.

- **إنشاء جيش نظامي للدولة**: استكمالا للمؤسسات المهمة في دولته أقدم أورخان على تأسيس جيش نظامي للدولة ؛ إذ كانت الجنود قبل ذلك يتم تجميعها وقت الحرب، ثم تنصرف بعد ذلك لمتابعة شئون حياتها العامة.

– وقد عرف ذلك الجيش باسم "الإنكشارية". وهي كلمة تركية تعنى "الجيش الجديد" أو "الجنود الجدد". وكان عماد هذه الفرقة الجديدة هم الشبان المسيحيين الذين يقعون أسرى في الحروب مع العثمانيين. فكانت الدولة تجمع هؤلاء الشباب في معسكرات معزولة، وفي هذه المعسكرات يربون تربية إسلامية، ويتعلمون فنون الحرب والقتال، وكان يُحَرَّم عليهم الزواج والاختلاط بالمجتمع بحيث لا يعرفون أبا إلا السلطان، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله.

– وكانت أعداد هذه الفرقة العسكرية الجديدة يزيد باضطراد كلما توسعت الدولة العثمانية في فتوحاتها في أوروبا حيث كانت تزداد أعداد الأسرى المسيحيين، وبالتالي يزداد عدد الإنشكارية.

– لكن ينبغي التأكيد على أن أعداد الإنكشارية في الجيش العثماني في عهود الفتح الأولى لم تكن كثيرة إذا ما قيست بأعداد الترك في الجيش العثماني؛ فالسجلات العثمانية توضح أن قوام الإنكشارية في عهد مراد الأول بن أورخان وعهد ابنه بايزيد الأول حوالي ألف جندي فقط في حين وصل هذا في عهد محمود الثاني إلى ١٤٠ ألف جندي.

مما يدل على أن أعداد الإنكشارية ازدادت في عهده.

– ونخلص من هذا إلى أن الإنكشارية لم يكوّنوا العنصر الرئيس– كما هو الشائع– في قوة العثمانيين القتالية خلال فترة الفتوح التي تمت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

- **ضريبة الغلمان**: يرتبط بالإنكشارية قضية مهمة من قضايا التاريخ العثماني هي ضريبة الغلمان أو "ديوشيرمه". وهي ضريبة آدمية فرضتها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين، فكان الصبية الصغار المسيحيون يؤخذون من البلاد المفتوحة حديثا ليدخلوا في الإسلام، ويربوا تربية إسلامية عسكرية وفكرية ليكونوا نواة للجيش العثماني الجديد.

Scanned with CamScanner

– وكان طبيعيا ألا ترحب الأسر المسيحية بهذه الضريبة، ولجأ بعضهم إلى تهريب أبنائهم، أو تزويجهم كي تحول دون انتزاعهم من ذويهم حيث كان القانون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين. كذلك وجدت هذه الضريبة معارضة من العائلات المسيحية التي كانت تسيطر عليها العاطفة الدينية؛ حيث كرهت هذه العائلات أن يرتد أبناؤها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمامهم مزهرا ومبشرا بالمجد ورفعة وثراء".

– وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المؤرخين ذكر أن عددًا كبيرًا من الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم لهم ذلك أن بعض العائلات ليضمنوا مستقبلا لامعا.

– وجدير بالذكر أن هناك نقدًا شديدا من قبل المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموما لهذه الضريبة وأنهم يتهمون الأتراك بالقسوة المتناهية إزاء البشر، والحقيقة أنه لا يمكن إغفال ما في هذا النظام قسوة، ولا يمكن المقارنة بما فعله الأوروبيون الإسبان بمسلمي الأندلس الذين خيروهم بين التنصير والموت، وبما فعله الأوروبيون بالزنوج الإفريقيين خلال عهد الاسترقاق المروع"، وبما فعله الأوروبيون بالمسلمين في الحروب الصليبية، وبمسلمي البوسنة والهرسك، وبما فعلوه بالشعوب الإسلامية إبان احتلالها.

القضاء على النفوذ البيزنطي في شمال غرب الأناضول:

– بعد استقرار أورخان في عاصمته الجديدة "بورصة" أرسل قادة جيشه لفتح ما بقى من بلاد آسيا الصغرى. وقد نجحت هذه الحملات في فتح أهم مدن الأناضول، فافتتح مدنا كثيرة منها مدينة "نيقية" في سنة ٧٣٠هـ، ومدينة نيفوميديا" عام ٧٣٨هـ.

انتقال الأتراك العثمانيين إلى أوروبا:

– بتوالي سقوط مراكز بيزنطة ومدنها الحصينة في يد العثمانيين لم يعد لها في الجانب الآسيوي سوى بعض القلاع الصغيرة، وشريط ساحلي على بحر إيجة.

– أما الجانب الأوروبي من الدولة فقد ظل العثمانيون يرنون إليه عبر الخليج دون أن يجدوا الجرأة الكافية لعبور هذا الخليج إلى الضفة الأوروبية.

– غير أن الخلاف الناشب في القسطنطينية بين المتنافسين على العرش فتح الطريق أمام أورخان ليرسل جيوشه إلى الجانب الأوروبي؛ ففي عام ٧٥٦هـ، استنجد الإمبراطور البيزنطي بالسلطان أورخان ليمده بالمساعدة لصد إغارات ملك الصرب الذي استولى على بلغاريا، وزحف على القسطنطينية، وقد عرض الإمبراطور البيزنطي على أورخان أن يزوجه ابنته مقابل هذه المساعدة وقد استجاب أورخان لطلبه، وأرسل جيشا كبيرا لمساعدته، فعبر الجيش العثماني – للمرة الأولى– إلى الساحل الأوروبي لكن فاجأ الموت ملك الصرب قبل وصول جيشه إلى القسطنطينية.

– وقد عادت هذه الحملة بفائدة جليلة على العثمانيين، فقد عاين جيشهم مواطن الضعف والقوة على الساحل الأوروبي، وتعرفوا على البلقان والمراكز الإستراتيجية فيه، كذلك كان بإمكانهم رؤية الحالة التي كانت عليها المملكة البيزنطية من الضعف والتفكك.

– ولذلك أرسل السلطان "أورخان" في عام ٧٥٧ هـ جيشا عثمانيا اجتاز مضيق الدردنيل، وتمكن من الاستيلاء على جزيرة "جاليبولي" وبذلك فتح العثمانيون الباب لدخول القارة الأوروبية بعد أن كانت فتوحاتهم مقصورة على آسيا الصغرى.

وترجع أهمية الاستيلاء على هذه الجزيرة إلى كونها تشرف على مضيق الدردنيل، وتمثل رأس جسر إلى البلقان، وكان الاستيلاء عليها بمثابة أولى خطوات الجيش العثماني إلى البلقان، إذ فتحت لهم الطريق إلى أوروبا.

– ويمكن لنا أن نقول من خلال رصدنا لبداية الفتوحات العثمانية في أوروبا: إن دخول العثمانيين إلى أوروبا: لم يكن مسألة فجائية مثل دخول المغول إلى البلاد التي سيطروا عليها ولكنها كانت مسألة تدريجية اعتمدت بشكل جوهري على انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوطها.

السلطان مراد الأول (٧٦١هـ- ٧٩١هـ) واستكمال الفتوحات العثمانية:

تولى السلطان مراد الحكم بعد وفاة أبيه. وكانت أولى أعماله الحربية الاستيلاء على مدينة أنقرة في الأناضول".

-- أما على الصعيد الأوروبي فقد فتح قائده "لالا شاهين باشا" فتح مدينة "أدرنة" في عام ٧٦٢هـ بعد أن هزمت جيوش العثمانيين الروم والقوات البلغارية التي جاءت لمساعدتهم.

- **معركة صرب صنديغي**: كان لسقوط أدرنة وقع الصاعقة على قوى أوروبا المسيحية، وأهاب البابا "أوربان الخامس" في روما بجميع المسيحيين أن يهبّوا لطرد العثمانيين من أوروبا وإنقاذ المدينة منهم، ومنع العثمانيين من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان. وقد لبى نداء البابا ملوك: البوسنة، والمجر، والصرب، وجيشوا جيشا عظيما، لكن الجيش العثماني تمكن من إيقاع هزيمة صاعقة بهذه الجيوش في موقعة "صرب صنديغي" في عام٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، وكانت هذه الهزيمة سببًا في وقوع (بلغاريا) كلها في يد العثمانيين بعد مقاومة يسيرة حيث قبل ملكها دفع الجزية للسلطان العثماني مراد الأول.

- **موقعة "قوصوة"**: لم تمدأ القوى الأوروبية وتستسلم أمام التيار العثماني الجارف، ففي عام ٧٩١هـ اتحد ملوك المجر وبلغاريا وبولندا، والبوسنة، والصرب، ودارت بينهم وبين جيش السلطان مراد حرب شديدة عرفت بموقعة "قُوصَوَة" أو ما بات يعرف بـ"كوسوفو/ كوسوفا". وقد قاد السلطان مراد الجيش بنفسه وكانت حربا مهولة سقط فيها كثير من القتلى من الجيشين، وأخيرًا تمخضت المواجهة عن هزيمة قاسية لجيش الحلفاء الأوروبيين وقُتل ملك المجر في هذه الموقعة، كما قُتل السلطان مراد الأول أيضًا إثر طعنة من أحد جنود الصرب.

Scanned with CamScanner

والحقيقة أن معركة قوصوة حددت مستقبل ممالك البلقان، وأدخلته تحت الحكم العثماني لمدة ٥٠٠ سنة قادمة.

– بالإضافة إلى أن حدود العثمانيين قد وصلت بعد هذه المعركة إلى شواطئ نهر الدانوب، وأصبحت القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بممتلكات العثمانيين.

السلطان بايزيد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٢م):

– تولى بايزيد الأول الحكم بعد وفاة والده وهو لم يزل في أرض المعركة بعد إصرار كبار رجال الدولة على ذلك؛ خشية وقوع نزاع على العرش يفضي إلى زعزعة استقرار الدولة وتفككها.

– وقد عرف عن بايزيد الاندفاع في المعارك والجرأة والنشاط العسكري، والمقدرة القتالية العالية حتى أطلق عليه "يلدرم" وهي كلمة تركية تعني البرق أو الصاعقة لخفته ومهارته بالحرب".

– وقد اقتدى بايزيد بوالده في الفتح والغزو، وصارت الدولة في عهده قوية راسخة القواعد في الأناضول والبلقان؛ فقد قضى بصورة نهائية على مملكة البلغار، واعترف الصرب بالسيادة العثمانية وتعهدوا بدفع الجزية السنوية، كذلك استطاع أن يقضي على بقية الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

- **موقعة نيكوبوليس/ نيقوبولي**: لم تقف أوروبا مكتوفة الأيدي أمام هذا الزحف العثماني، فقد أعلن البابا "بونيفاس التاسع" دعوة أمراء أوروبا وملوكها للاتحاد ضد المارد العثماني الذي يهدد الوجود المسيحي في أوروبا، وقد استجاب لدعوة البابا كل من: إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وبلجيكا، وأسكتلندا، وسويسرا. كل هذه الدول أرسلت جنودًا للمشاركة في صد العثمانيين واجتمع هؤلاء المشاركون تحت قيادة "سِجِسْمُند ملك المجر.

– والتقى الفريقان عند مدينة(نيكوبوليس/ نيقوبولي) في عام ٧٩٩هـ، وانتصر الجيش العثماني على هذه الجموع الغفيرة وأسر منهم عددًا كبيرا من مشاهير الفرسان النبلاء في أوروبا، ونتج عن هذا الانتصار توطد أقدام العثمانيين في البلقان، واختراق الجيش العثماني لبلاد مقدونيا واليونان.

وتعد هذه الموقعة الحربية المهمة واحدة من أهم الأحداث في أوروبا، فكانت آخر مشروع دولي مهم للتحالف الأوروبي ضد العثمانيين.

– كذلك فإن هذا الانتصار منح بايزيد بصورة رسمية لقب "سلطان الروم" كدليل على وراثة دولته لدولة السلاجقة، فقد أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم في القاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب، فوافق، وكان هذا معناه الاعتراف ببايزيد سلطانا على إقليم الروم، وليصبح بذلك أول من حمل لقب سلطان في آل عثمان من الناحية الرسمية.

- **تيمورلنك ووقف المد العثماني عن أوروبا**: كان يمكن اكتساح أوروبا كلها بل السيطرة على القسطنطينية وفتحها بعد الانتصار الذي حققه بايزيد على الجموع الأوروبية، لولا ظهور الخطر الذي حاق بدولته من الشرق والمتمثل في تيمورلنك وهجومه على آسيا الصغرى.

لقد كان السلطان بايزيد قد بدأ بالفعل حصار القسطنطينية تمهيدا لفتحها، مستغلا حالة أوروبا السيئة بعد الهزيمة المرة، وقد شدد السلطان حصاره عليها، وأصبحت المدينة على وشك السقوط، وكانت أوروبا تتوقع استسلامها للسلطان العثماني بين الحين والآخر. وإذا بالوضع يتغير بصورة كلية إثر توجه تيمورلنك نحو ممتلكات العثمانيين في آسيا الصغرى مما جعل السلطان يرفع الحصار عن القسطنطينية ويعود لمواجهة هذا الخطر الذي أوقف زحف العثمانيين في أوروبا".

– بعد أن تمكن تيمورلنك من تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف؛ وذلك باستيلائه على بلاد ما وراء النهر، وكافة أقاليم إيران فضلا عن جزء كبير من بلاد الهند، رغب في إخضاع آسيا الصغرى تحت حكمه. وقد شجعه على ذلك أمراء الأناضول الذين انتزعت منهم أملاكهم، فراحوا يحرضون تيمورلنك على غزو الأناضول.

- **معركة أنقرة**: في عام ٨٠٤هـ، وفي أحد السهول القريبة من أنقرة دارت معركة ضروس وصفها "أوزتونا" بقوله: "كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى، وقد تعرض السلطان بايزيد لخيانة بعض الفرق العسكرية الموجودة في جيشه وانضمامها إلى جيش تيمورلنك، ولم يبق مع السلطان سوى عشرة آلاف جندي من الإنكشارية والصرب.

– والحقيقة أن السلطان قاتل قتالا شديد لكن جرت الأمور في النهاية لصالح تيمورلنك ووقع السلطان نفسه أسيرا ومعه ابنه موسى وبعض كبار رجالا جيشه.

– وبعدها تمكن تيمورلنك من الاستيلاء على مدن الأناضول وحصونه المهمة، وأعاد حكامها السابقين تحت شريطة أن يعلنوا ولاءهم له ودخولهم تحت حكمه.

Scanned with CamScanner

أما السلطان الأسير فإنه لم يتحمل مرارة الأسر فمات بعد بضعة أشهر من أسره.

- **نتائجها**: أسفرت هذه الهزيمة عن نتائج خطيرة، حيث غيرت مجرى التاريخ العثماني والعالمي؛ فقد أنهت دولة العثمانيين المركزية، وعادت الإمارات الصغيرة من جديد تسيطر علي أراضيها، وتحول العثمانيون إلى مجرد إمارة تعترف بسيادة تيمورلنك.

– وفي أوروبا استعادت الدول المنهزمة كبلغاريا وصربيا سيادتها واستقلالها. وبعث ملوك إنجلترا، وفرنسا، وقشتالة، وإمبراطورية القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه بهذا النصر العظيم.

– وتعد معركة أنقرة إحدى أكبر الكوارث التي أخرت نمو العثمانيين وفتوحاتها نصف قرن، كما أطالت عمر الدولة البيزنطية خمسين سنة أخرى، وأخرت وحدة الأناضول تحت قيادة مركزية واحدة، وكان من نتيجة الجو المعتم الذي خلفته الحرب الداخلية بين أبناء بايزيد أن تأخرت عملية استعادة الدولة لقواها، وتطلب الأمر مرور نصف قرن لكي تتجاوز سنوات المحنة التي عاشتها في تلك الفترة وتعيد من جديد تشكيل بنائها المركزي".

الدولة العثمانية بعد موت بايزيد الأول: احتضار وانبعاث:

– على الرغم من أن الضربة التي تعرضت لها الدولة العثمانية على يد تيمورلنك كانت شديدة القسوة، فإنها لم تكن قاتلة بحيث تنهي حكم العثمانيين من الوجود بصورة نهائية. وقد علل المؤرخ "أرنولد توينبي" عدم سقوط الدولة العثمانية بعد تلك الضربة القاسية بأن هذه الضربة وقعت في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال في دور التكوين والفتوة، وهو دور يعطي الدولة الناشئة القدرة على تلقي الضربة وامتصاصها ثم معاودة النهوض.

وبعد المعركة حدث صراع مرير بين أبناء بايزيد الثلاثة: موسى وسليمان ومحمد على حكم الدولة قرابة العشر سنوات».

السلطان محمد الأول

٢ . – استطاع محمد جلبي" أصغر أبناء بايزيد أن يتغلب على أخويه، ويتولى أمور السلطنة منفردًا بحكم الدولة العثمانية في عام ٨١٦هـ، وبدأ في إعادة الوحدة لدولته المقسمة، فأظهر الصداقة للأمبراطور البيزنطي، واستقبل سفارات من حكام، الصرب، وألبانيا، وعقد معاهدة صداقة مع البندقية، واسترجع إمارات الأناضول الواحدة تلو الأخرى، ولكن بصورة تدريجية.

السلطان مراد الثاني (٨٢٤ – ٨٥٥هـ)

٢ . – سار ابنه السلطان مراد الثاني على نهجه، واتبع سياسته لإتمام إحياء الإمبراطورية العثمانية، لكنه اصطدم بالمجريين الذين كانوا يخشون إحياء سلطان الأتراك مرة أخرى في بلادهم فقاد المجريون حلفا مسيحيا جديدًا لصد العثمانيين، ونجح الزعيم المجري "هونياد" في إنزال بعض الهزائم بالعثمانيين في البلقان، واستطاع هذا القائد التغلب على السلطان مراد نفسه بالقرب من مدينة "نيش/ نيسا" في جنوب الصرب، وتم عقد هدنة بين الطرفين في عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م إثر نجاح السلطان في إلحاق الهزيمة بهم عند مدينة "وارنه" الواقعة على البحر الأسود، ونتج عن هذا النصر القضاء على زهرة جيوش المجر بحيث عجزت المجر بعد هذه الهزيمة عن القيام بأي مجهود حربي لعدة سنوات، كما تم إخضاع الصرب والبوسنة وغيرها للسلطان مراد الثاني، وكانت هذه المعركة آخر محاولة صليبية جماعية ضد العثمانيين.

الفصل الثاني (الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية)

فتح القسطنطينية وقيام الإمبراطورية العثمانية:

– عقب وفاة مراد الثاني تولى ابنه محمد (الثاني/ الفاتح) عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، عرش العثمانيين وبدأت الدولة العثمانية تدخل طور الإمبراطورية.

– وقد وُضعت أسس الإمبراطورية في عهد السلطان محمد الفاتح، وبلغت قمة عظمتها على أيام سليمان القانوني حيث عادت تنعش من جديد سياسة الفتوح والنظام المركزي للحكم.

– تقع القسطنطينية على مضيق البسفور والقرن الذهبي وهو خليج صغير من خلجان البوسفور، وقد اكتسبت مكانة إستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها تقريبًا من ثلاث جهات (البسفور – بحر مرمرة – القرن الذهبي وهو خليج عظيم طوله سبعة أميال) على هذا المكان الفريد، نشأت القسطنطينية التي صارت تنعم بميناء طبيعي في القرن الذهبي يكفل لأساطيلها الحماية، فضلاً عن حصانة المدينة نفسها لأن المياه تحيط بها تقريبًا من الجهات الشمالية الشرقية والجنوبية، واسم المدينة مأخوذ من اسم الأمبراطور قسطنطين.

– والحقيقة أن فتح القسطنطينية كان حلما يراود المسلمين منذ فجر تاريخهم، فقد بشر به النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث شريف، فقد روى عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "لتُفتحنّ القُسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش".

– وقد حاول كثير من الخلفاء والأمراء أن يحقق هذه البشرى، ويظفر بهذا الثناء النبوي ابتداء من محاولات الأمويين في عهد معاوية بن أبي

Scanned with CamScanner

سفيان – رضي الله عنه –، وطوال العهد الأموي كانت الحملات تُرسل إلى القسطنطينية بصورة ة متتابعة. وكذلك في عهد الخليفة المهدي العباسي حاصرها المسلمون في سنة١٦٥هـ بجيش على رأسه هارون الرشيد.

– وفي الدولة العثمانية كانت هناك محاولات لفتحها قام بها السلطان بايزيد الأول والسلطان مراد الثاني، لكن هذه الجهود باءت بالفشل في ذلك الوقت.

لكن في عصر السلطان محمد الفاتح تجددت سياسة الفتوح مرة أخرى، ورأى السلطان أن العائق الوحيد الذي يقف أمام تنفيذ سياسته الرامية إلى التوسع في الفتوحات هي الدولة البيزنطية، فأراد أن يحل هذه المشكلة بفتح القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية.

– وتذكر المصادر أن انشغال السلطان محمد الفاتح بفتح القسطنطينية أمر قديم رافقه منذ صباه، فالسلطان العثماني نشأ نشأة دينية وتأثر بمجموعة من العلماء شكلوا اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية.

– وكان محمد الفاتح يحدث نفسه بفتح القسطنطينية، وقد عزز ذلك حديث شيخه "آق شمس الدين" الدائم له بأنه هو صاحب فتح القسطنطينية.

ولكي يتسنى له التفرغ الكامل لتحقيق حلمه بفتح القسطنطينية، قام السلطان محمد الفاتح بالتالي:

(١) توثيق العلاقة بالقوى المجاورة، وتجميد خلافاته معها ولم تكن رغبة زعماء القوى المجاورة للدولة العثمانية في عقد اتفاقيات المصالحة بأقل من رغبة السلطان محمد الفاتح، فقد انتهز ملك الصرب وغيره من ملوك أوروبا فرصة تسلم السلطان محمد الفاتح لمقاليد السلطنة، فتسابقوا إلى إرسال الوفود لتقديم التهاني والهدايا وانتهزوا تلك المناسبة فعقدوا مع السلطان محمد الفاتح معاهدات صلح جديدة، وبذلك تم تحييد القوى النصرانية المجاورة للقسطنطينية لئلا تقدم المساعدات للقسطنطينية عندما يقرر توجيه ضربته الفاصلة إليها.

(٢) أخذ السلطان محمد الفاتح يعد العدة العسكرية الضخمة، فأمر ببناء قلعة على الجانب الأوروبي للبوسفور وذلك عام ٨٥٦هـ، حتى يضمن التحكم في المضايق، وإيجاد قاعدة هامة يمكن استخدامها في حصار القسطنطينية.

– ولما كانت مناعة أسوار القسطنطينية تأتي في المرتبة الأولى في العالم، وكان معروفا أن المدينة لا يمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يدوم لفترة طويلة يفضي إلى إجاعتها، ومن البديهي أن الدول الأوروبية سوف تأتي خلال هذه المدة لنجدة المدينة، ولذلك كان تخطيط محمد الثاني يقوم على أن تتكفل المدافع بإنهاء العملية قبل أن تصل إليها نجدة أوروبية.

– ولتحقيق ذلك طلب من مهندس مجري أن يصنع له مدافع ضخمة عرفت بالمدافع السلطانية، وكان لهذه المدافع الأثر الحسن في سير القتال، فحسمت المعركة مع البيزنطيين كما خطط لذلك السلطان.

وعلى مدار عامين كاملين قضاهما العثمانيون في استكمال الاستعدادات للفتح الأكبر في تاريخ العثمانيين.

– وهنا كانت الأحوال في القسطنطينية خلاف ذلك، فالإمبراطور البيزنطي كان يدرك حتمية المواجهة مع العثمانيين، ولن يستطيع وحده دفع هذا الهجوم عن دولته، فاستنجد بأوروبا محذرًا من عواقب سقوط المدينة في أيدي المسلمين، ولم يلق ملوك أوروبا بالا بما يحدث لانشغالهم بمشاكلهم الخاصة، ونزاعاتهما الداخلية".

- **نقل السفن عبر اليابسة**: في الجانب العثماني كان السلطان محمد الفاتح يضع الخطط الحربية التي تكفل له السيطرة على هذه المدينة الحصينة؛ وكان من هذه الخطط أن يقوم الجيش بمهاجمة القسطنطينية من جهتها الواقعة على القرن الذهبي/ الخليج الذهبي؛ وذلك لأن هذه الجهة كانت أضعف جبهات القتال البيزنطية. ولتفعيل هذه الخطة كان عليه أن يعبر بسفنه من البسفور إلى القرن الذهبي، وكان ذلك متعذرًا لوجود سلاسل ضخمة على باب الميناء تحول دون دخول السفن إليه، ولذلك فكر السلطان في طريقة يتمكن بها من دخول الميناء دون المرور من مدخله المغلق. وتتلخص هذه الخطة في نقل السفن من اليابسة وذلك بتعبيد طريق البسفور البري بحيث يمكن نقل السفن عبر هذا الطريق البري إلى الخليج مباشرة وقد تطلب ذلك فرش الطريق بألواح خشبية ضخمة، ودهنت بالزيت لتنزلق السفن بسهولة عليها، وهكذا تمكن السلطان من نقل حوالي سبعين سفينة إلى القرن الذهبي، ولم يتوقع البيزنطيون أن يروا الأسطول العثماني في القرن الذهبي فدب اليأس في قلوبهم، وأيقنوا بحتمية سقوط المدينة في أيدي العثمانيين وبدأت المدفعية تقصف أبواب السور وأبراجه، وأضحت العاصمة مهددة للمرة الأولى بحرًا وبرًا بعد أن كان أهل القسطنطينية يعتقدون اعتقادا جازما في أن المدينة لن تسقط في يد أي فاتح مهما أوتي من مهارة وجسارة.

لكن ما فعله الفاتح وجنوده فاق تصور البيزنطيين وخيالهم.

- **الهجوم الشامل**: رأى السلطان محمد الفاتح أن يكتب للإمبراطور البيزنطي ليسلم المدينة دون الاستمرار في القتال في مقابل تأمينه هو وأمواله وحاشيته، وأن يعطيه السلطان جزيرة المورة باليونان يحكمها باسم العثمانيين، لكن الإمبراطور أصر على مواصلة القتال". وعند ذلك أمر السلطان بالهجوم الشامل على المدينة سنة٨٥٧هـ/ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م، فهاجم مائة وخمسون ألف جندي المدينة متسلقين أسوارها حتى دخلوا من كل فج، وقد مات الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨-١٤٥٣م) في دفاعه عن المدينة لتسقط المدينة في

Scanned with CamScanner

أيدي المسلمين بعد ١١٢٤ عامًا من تأسيسها.

– ودخل السلطان محمد الثاني إلى القسطنطينية لينال منذ تلك اللحظة اللقب الذي لازمه في التاريخ الإسلامي وهو "الفاتح" وأعلن اتخاذها عاصمة لدولته، وقد تجاوز السلطان محمد الفاتح بهذا الفتح كل ما أنجزه السلاطين.

لقد اكتسب العثمانيون بهذا الفتح تقدير العالم الإسلامي، ونالوا فخرا تطلّع إليه عظماء الدول الإسلامية التي حكمت قبلهم. وقد ابتهج المسلمون في العواصم الإسلامية بهذا الفتح المبين، وأقيمت الزينات في القاهرة.

– وكان سقوط الدولة البيزنطية نهاية لحقبة تاريخية في أوروبا حيث خُتم بسقوطها ما عرف بالعصور الوسطى، وبداية للتاريخ الحديث. وبانتقال مركز الحكم إلى القسطنطينية "إسلامبول" أصبح للعثمانيين مركز ممتاز في الشرق. وقد أدرك "الفاتح" أهمية التجارة الغربية بالنسبة للدولة العثمانية ولخزينتها، فسعى لجعل إسلامبول مركزا استراتيجيا ليس للدولة العثمانية والعالم الإسلامي فحسب بل للعالم كله".

– لقد نجح السلطان محمد الفاتح في إرساء سياسة متسامحة مع النصارى في العاصمة الجديدة لدولته. وقد نجحت هذه السياسة في تحييد الكنيسة الأرثوذكسية وأتباعها، وقد ضمن لهم حرية العبادة وممارسة النشاطات التجارية والصناعية، وغيرها، وأبقى المسئوليات الدينية لهم في يد الكنيسة، وعلى رأسها "بطريك الروم".

– ولا يتناقض مع هذه السياسة المتسامحة تحويل السلطان لكنيسة "آيا صوفيا" إلى مسجد جامع، وذلك بعد أن أضاف إليه أربع مآذن واستبدل بالصليب الموجود أعلى قبتها هلالا. أقول لا يناقض هذا مع السياسة المتسامحة التي انتهجها الفاتح منذ دخوله إلى المدينة، ويمكن تفسير هذا الصنيع في السياق التاريخي الذي شهد هذه الأحداث فقد أقدم الإسبان في أوروبا على تحويل المساجد الكبيرة في الأندلس إلى كنائس، ومنها المسجد الجامع في قرطبة، فكان تحويل السلطان محمد الفاتح الكنيسة إلى مسجد بمثابة الرد على ما فعله الإسبان بمساجد المسلمين في الأندلس.

٢ – أما عن الأثر الذي تركه سقوط القسطنطينية على الدول الأوروبية، فقد سرت في أوروبا موجة من الرعب واليأس، وبهذا فقد أصبح بقاء المناطق الأوروبية التي فتحها العثمانيون واقعا لا يقبل الشك، ولم يعد بمقدور هذه الدول استرداد تلك المناطق من قبضة العثمانيين؛ فقد كانت القسطنطينية القاعدة الاستراتيجية التي كان يمكن للأوروبيين استخدامها ضد العثمانيين، وبعد سقوطها تغيرت المعادلة السياسية والعسكرية لصالح العثمانيين في تلك المناطق.

٢ - **فتوحات أخرى**: لم تقف فتوحات السلطان محمد الفاتح عند إسقاط الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعد فتح القسطنطينية، إنما شملت عدة مناطق في أوروبا في الأناضول؛ ففي عام٨٦٣هـ/١٤٥٩م فتح بلاد الصرب، وفتح بلاد المورة في عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠، وفتح ألبانيا بين عامي ٨٦٧– ٨٨٤هـ/ ١٤٦٣– ١٤٧٩م، وفتح بلاد البوسنة والهرسك بين عامي ٨٦٧– ٨٧٠هـ/ ٤٦٣– ١٤٦٥م، وخاض حربًا مع المجر في عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، وضم الجزر اليونانية عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م.

السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦ هـ/١٥١٢-١٥١٩) ونقل الخلافة من أوروبا إلى الشرق الإسلامي

– السلطان سليم الأول هو أصغر أبناء السلطان "بايزيد الثاني" الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان محمد الفاتح سنة٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، وقد تولى السلطان سليم الحكم بعد أن أجبر والده في عام ٩١٨هـ على التنازل له عن العرش مخافة أن يعهد بايزيد لابنه أحمد بالحكم بدلا منه.

– وإذا كان "بايزيد الثاني" قد اشتهر في التاريخ بحبه للسلام، وعدم التسرع في خوض الحروب والصناعات وتفضيله للآداب والعلوم حتى أطلق عليه "بايزيد الصوفي" فإن ابنه سليم الأول كان على خلاف ذلك؛ إذ كان مشهورا بالعنف وسرعة الغضب والتهور، كما كان شجاعا مقداما لا يخشى المعارك، ولهذا أطلق عليه "ياوز" وتعني: الصارم أو الرهيب".

– وقد شهد عهد السلطان سليم الأول توقف فتوحات العثمانيين في أوروبا، واتجاه الجيوش العثمانية صوب بلاد الشرق الإسلامي بغية إخضاعها لسيطرة العثمانيين.

– ويختلف المحللون في تفسير السبب الذي دفع العثمانيين إلى ذلك مما أدى إلى ظهور ثلاث نظريات تحاول تفسير السبب الذي دفع العثمانيين إلى التوجه نحو المشرق وترك الجبهة الأوروبية، وهذه النظريات هي:

(١) **نظرية التشبع العسكري العثماني في أوروبا**؛ إذ يرى أصحاب هذه النظرية أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع.

Scanned with CamScanner

وهذا الرأي يتفق مع المنطق التاريخي. فلكل دولة مدى معين في التوسع، ومن المعقول أن يقف مدى الفتوحات العثمانية عند المجر.

(٢) **نظرية النزاع الصفوي العثماني**: يرى أصحاب هذه النظرية أن سياسة الدولة الصفوية في إيران المتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق الإسلامي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة.

(٣) **نظرية النزاع البرتغالي العثماني**، ويرى أصحاب هذه النظرية أن العثمانين قد اتجهوا في فتوحاتهم نحو المشرق العربي لحمايته من الخطر الأوروبي أو البرتغالي الذي كان قد بدأ يظهر حول المنافذ البحرية للمشرق العربي.

– وبالرغم من تعصب كل فريق من المؤرخين لرأيه أو نظريته، فإننا لا نرى ما يمنع من أن تكون هذه العوامل جميعها مسئولية مشتركة عن الاتجاه الشرقي للدولة العثمانية.

قيام الدولة الصفوية في إيران وصراعها مع العثمانيين

تنسب الدولة الصفوية إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي، وهو واحد من كبار الصوفية الذين عاشوا في إيران وتحديدًا في مدينة أردبيل بإقليم أذربيجان في شمالي غرب إيران.

– وكان صفي الدين سني المذهب، على الرغم من أن بعض الآراء تنسبه للشيعة، لكن المستقر لدى الباحثين أنه رجل سني على المذهب الشافعي.

– وقد طغى نفوذ الشيخ الروحي على حكام المغول الإيلخانيين في إيران، واعتقد فيه الأمراء والقادة والأعيان، ولم يكن الأمر مقصورًا على إيران وحدها فقد امتد نفوذ الشيخ الروحي إلى الأناضول، وكان للشيخ نفوذ روحي كبير في تلك المناطق حيث كثرت أعداد مريديه بصورة واضحة.

ومع ذلك لم يؤثر عن أي نزوع إلى أمور الحكم والسياسة، أو السعي للحصول على أية سلطة سياسة.

- **صدر الدين موسى**: ورث أبناؤه من بعده الطريقة الصوفية، فقد عهد لابنه "صدر الدين موسى" بتولي إرشاد المريدين بعده، وقد ظل شيخا للطريقة لمدة قاربت الستين عاما عمل خلالها على نشر الطريقة في إيران، وقد حافظت الطريقة طوال عهده على طابعها السني، وعلى الابتعاد عن دائرة السياسة.

- **خواجه علي سياهبوش**: بعد وفاة الشيخ (صدر الدين) تولى إرشاد الطريقة الصوفية ابنه خواجه علي سياهبوش. وكان معروفا بالزهد وشدة الورع واشتهر بلقب سياهبوش لحرصه على ارتداء الملابس السوداء بشكل دائم، وكان له سلطان روحي على تيمورلنك، وكان تيمورلنك متعلقا به تعلقا شديدا.

وقد استجاب لشفاعته وأطلق سراح الأسرى العثمانيين الذين أسرهم في معركة أنقرة.

- **الشيخ إبراهيم "شيخ شاه"**: بعد موته تولى ابنه الشيخ إبراهيم "شيخ شاه" مشيخة الطريقة وكان الرجل آخر الشيوخ السنة للطريقة الصفوية.

- **جنيد**: يبدء تشيع الطريقة مع تولي جنيد بن الشيخ إبراهيم إرشاد الطريقة، فقد أطلق على نفسه "سلطان". وكان هذا التحول في اللقب بداية لتحول كبير في عقيدة الطريقة الصفوية؛ فقد كان ذلك بداية لدخول الطريقة إلى ساحة الصراعات الحربية والسياسية بعد عقود من التصوف الخالص.

– لم يكن تحول جنيد من زعيم صوفي إلى قائد حربي هو التحول الأهم ضمن جملة التحولات التي واكبت توليه إرشاد الصفويين؛ إذ كان تحوله من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الاثني عشري من التحولات المهمة ليس فقط في مسيرة الأسرة الصفوية ومريديها في إيران، إنما كان نقطة فارقة في تاريخ إيران كلها.

ومن الممكن أنه لو لم يقم جنيد بهذه النقلة الهائلة لظلت الطريقة سنية وصوفية، ولظل التشيع بعيدا عن مجرى التاريخ الإيراني.

- **حيدر**: قاد السلطان جنيد مريديه وخرج للقتال رغبة في تكوين كيان سياسي للصفويين، لكن قتل في إحدى المعارك سنة ٨٦٠هـ قبل أن يحقق هذا الحلم، فأكمل ابنه "حيدر" طريقه في سبيل تأسيس ملك للصفويين في إيران. واعتمد حيدر على مجموعة من القبائل عرفت في التاريخ باسم "قبائل القزلباش". وهي كلمة تركية تعني الرأس الحمراء. وسبب هذه التسمية أن السلطان حيدر أمر باتخاذ شعار له ولمريديه يميزهم عن سائر الجماعات

Scanned with CamScanner

الصوفية في إيران، وكان هذا الشعار هو غطاء مميزا للرأس له اثنتا عشرة ذؤابة إشارة إلى الأئمة الاثني عشر.

وهذا تحول جديد في صفوف الطريقة الصفوية، فقد أصبح إظهارها لاعتقادها الشيعي غالبا على طابعها الصوفي.

- وكان السلطان حيدر يؤكد دائما في كل مجلس يجلسه أو بلدة يزورها اتصال نسبه بالإمام موسى الكاظم إمام الشيعة السابع تأكيدا على انتمائه لآل البيت من ناحية، وإظهارا لعقيدته الشيعية من ناحية أخرى.

لكنه قتل في عام ٨٩٢هـ في حربه مع حكام شيروان، وترك خلفه ثلاثة أبناء كان أصغرهم إسماعيل.

الشاه إسماعيل الصفوي وتحول إيران إلى المذهب الشيعي:

جلس على كرسي الحكم في تبريز سنة٩٠٧ هـ ولقب بأبي المظفر شاه إسماعيل.

- وكان أول قرار اتخذه الشاه بعد أن جلس على عرش إيران إعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا ووحيدا لدولته وفرضه على رعيته بالقوة.
- وأمر الشاه الخطباء بأن يقرءوا الخطبة على منابرهم باسماء الأئمة الاثني عشر، وأمر المؤذنين بأن يتلوا تشهد الشيعة "أشهد أن عليا ولي الله" وأن يزيدوا فيه عبارة "حي على خير العمل". وقد ضربت السكة في عهده كذلك وعليها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي ولي الله"، وأمر الناس بأن يلعنوا الخلفاء الراشدين في مجالسهم وطرقهم.

ويبدو أن الشاه قد مارس أشد أنواع القسوة في تبريز، لدرجة أنه لم يجد معارضة فيها ضد قراره السابقة، وهذا يدل على بشاعة ما قام به في تبريز بعد توليه الحكم.

إرهاصات الصراع العثماني الصفوي

- كان طبيعيا أن يكون الخلاف المذهبي بين الدولتين الكبيرتين (الصفوية والعثمانية) عاملا مهما لنشوب الصراع بينهما، ويعزز من ذلك أن الشاه إسماعيل الصفوي كان لديه مشروع مذهبي يهدف لنشر التشيع والتمكين له في البلاد المجاورة له.
- وكان سبيل الشاه لنشر المذهب الشيعي في الأناضول يعتمد على دعم الشيعة في الأناضول وتقديم العون والدعم لهم بل ودفعهم للثورة على العثمانيين في الأناضول، ومن تلك الثورات التي دعمها الشاه إسماعيل ثورة "شاه قولى". وتعني "عبد الشاه"، وفي عام٩١٦هـ ظهرت أهدافه الشيعية والمذهبية حينما جمع حوله الشيعة وخرج، وتمكن من الاستيلاء على عدد من البلاد خطب فيها باسم الشاه إسماعيل وهزم عددًا من جيوش العثمانيين، لكنه قتل في النهاية في عام ٩١٧هـ.
- ومع تولي السلطان سليم الأول حكم العثمانيين تتصاعد وتيرة الأحداث فيما يخص العلاقات الصفوية/ العثمانية فلم يكن السلطان الجديد متصفا بالصبر كأبيه، وكان يدرك الخطر الكبير الذي يمثله الشاه إسماعيل.
- كذلك لم يرسل الشاه إسماعيل رسولا من قبله لتقديم التهنئة للسلطان سليم بعد توليه العرش كما جرت العادة بذلك بين الملوك وهذا يعني أن الشاه إسماعيل يقصد إهانة السلطان العثماني والانتقاص من قدره، وقد أدى ذلك إلى عزم السلطان على مهاجمة إيران وإنهاء الحكم الصفوي فيها.

جالديران٩٢٠هـ/ ١٥١٤ وبداية الحروب العثمانية الصفوية

- قرر السلطان سليم الأول إعداد الجيش والتحرك صوب إيران لحرب الشاه إسماعيل، فأخذ في إكمال التجهيزات الحربية اللازمة للحرب حيث حشد ما يقرب من ١٢٠ ألف جندي مجهزين بالعربات العسكرية، وبسلاح المدفعية، وقام بتجديد المعاهدات مع الدول الأوروبية ليضمن تأمين الجبهة الغربية لدولته أثناء انشغاله بالحرب في الشرق، فعقد معاهدات مع البندقية، والمجر، وأبرم معهم هدنة طويلة المدة.

- **وبعدها:** تحرك السلطان سليم بجيشه لحرب الشاه إسماعيل، وجرت عدة مراسلات بين الطرفين حملت تهديد كل منهما للآخر، وانتهت بالقتال في صحراء "جالديران" غرب أذربيجان، وكان التفوق للجيش العثماني عددًا وعتادا وتسليحا.

- **أحداث المعركة:** دار قتال عنيف بين الدولتين انتهي بنصر مبين للسلطان العثماني الذي اتجه إلى تبريز ودخلها دون مقاومة، وكان يوما مشهودا.

لقد كانت موقعة جالديران الشرارة الأولى لحروب طاحنة بين الفريقين استمرت ما يربو على قرنين من الزمان، ولم تكن واحدة من تلك الحروب حاسمة بحيث تقضي على دولة لصالح الأخرى إنما استمرت هكذا لتضعف الدولتين معا.

السلطان سليم يكمل سيطرته على بلاد الشرق:

- بعد أن استطاع السلطان سليم تأمين حدود دولته مع إيران وكسر قوة الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران رغب في استكمال خطته الرامية إلى السيطرة على كافة دول الشرق الإسلامي، و أهمها دولة المماليك التي تسيطر على مصر والشام والحجاز.

والحقيقة أن العلاقات بين العثمانيين والمماليك اتسمت في فترات طويلة بالود والتعاون.

Scanned with CamScanner

– يؤكد ذلك تبادل الطرفين الرسائل والهدايا وطلب الاتحاد من أجل دفع خطر تيمورلنك عن الدولتين، كذلك كان للفتوحات العثمانية في أوروبا مردود طيب في القاهرة، فكانت تزين الشوارع احتفالا بتلك الفتوحات.

– وما يدل على الصلات الطيبة بين الدولتين مساعدة الدولة العثمانية للسلطان الغوري في تأسيس أسطول جديد بعد هزيمة أسطوله أمام البرتغاليين في معركة "ديو" البحرية عام ٩١٥هـ، فأرسل الغوري إلى "بايزيد الثاني" يطلب أن يمده بالأخشاب اللازمة لبناء سفن قوية وما يلزم هذه السفن من الحديد والبارود وغيرها، فاستجاب السلطان لطلبه وأمده بكل ما سأل.

– لكن العلاقات بين الدولتين لم تكن طوال الوقت على هذه الصورة من الود والسلام، فقد كانت هناك بعض الحوادث التي تؤدي إلى توتر العلاقات بين المماليك والعثمانيين؛ منها فرار بعض الأمراء العثمانيين للاحتماء بسلطان المماليك مثل الأمير "جم بن محمد الفاتح" الذي نازع أخاه "بايزيد الثاني" على العرش، وفر إلى مصر، فاستقبله السلطان قايتباي وأكرمه إكراما كبيرا، وكذلك قرار الأمير "قورقود بن بايزيد أثناء النزاع على العرش بينه وبين إخوته.

ومثل هذه الحوادث كانت سببا من أسباب الخلاف المملوكي العثماني.

– أمر آخر أسهم في توتر العلاقات العثمانية المملوكية هو الموقف الذي اتخذه السلطان الغوري من الصراع العثماني الصفوي فابن إياس يذكر أن السلطان سليم أرسل إليه يعلمه بعزمه على محاربة الشاه إسماعيل، ويطلب منه أن يتحدا معًا لمواجهة هذا العدو، ولكن السلطان الغوري آثر أن يتخذ موقفًا محايدًا في هذا الصراع، وألا يكون مع فريق ضد الآخر.

– بل أن المماليك طلبوا من علاء الدين أمير إمارة "ذو القدر/ ذو لقادر" منع الجيش العثماني من المرور وألا يمدهم بالمؤمن اللازمة لجيشهم، وقد كان هذا سببًا للحرب التي وقعت بين السلطان سليم والغوري بعد ذلك حسب قول المؤرخين.

– ومما يؤكد توتر العلاقات بين الطرفين أن العادة قد جرت في القاهرة أن تعلق الزينات في حالة تحقيق الجيش العثماني انتصارًا على الأعداء، ولكن الذي حدث أن السلطان الغوري لم يأمر بأن تقام الاحتفالات في القاهرة بعد انتصار العثمانيين علي الصفويين في موقعة جالديران.

– وقد ذكرت المصادر التاريخية حدثا كان له الأثر الأكبر في إشعال الحرب بين الدولتين وهو سعي الغوري والشاه إسماعيل للتحالف معًا للحد من الخطر العثماني على دولتيهما.

– وقد تأكد للعثمانيين أن هناك تواصلاً يتم بين الصفويين والسلطان الغوري، وذلك بعد أن عثرت عيونهم على خطاب سري يؤكد هذا التواصل.

هذه هي الأسباب التي دفعت السلطان سليم الأول إلى الاستيلاء على مصر والشام من أيدي المماليك.

– والحقيقة أنه لا يمكن إغفال الخطر البرتغالي الذي هدد العالم الإسلامي ومنع سفنه من المرور في الخليج العربي والبحر الأحمر، وصل الأمر إلى عزمهم على الاستيلاء على الحجاز، ونبش قبر النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولم يكن للمماليك قوة لدفع هذا الخطر الذي أحاق بهم، فعزم العثمانيون على السيطرة على الدولة المملوكية، والوقوف أمام الخطر البرتغالي.

- **معركة مرج دابق**: في عام ٩٢٢هـ نجح الجيش العثماني بإنزال الهزيمة بالجيش المملوكي، وذلك في موقعة "مرج دابق"، وأسهمت الخيانة التي تعرض لها السلطان الغوري من الأمير "خاير بك" نائب حلب، والأمير "جان بردي الغزالي" نائب الشام، في إلحاق الهزيمة به.

- **الريدانية**: استطاع العثمانيين في موقعة الريدانية أن يلحقوا الهزيمة مرة أخرى بالمماليك تحت قيادة السلطان طومان باي في "الريدانية"سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، لتدخل الشام ومصر والحجاز في أملاك الدولة العثمانية.

– وبعد أن أصبح الحجاز تحت السيطرة العثمانية تلقب السلطان سليم بلقب "خادم الحرمين الشريفين" ورفض أن يُلقب بـ"ملك الحرمين الشريفين"، كذلك بعد أن أصبحت مصر تابعة للدولة العثمانية لم تعد مقرا للخلافة العباسية حيث انتقل الخليفة إلى إستانبول عاصمة العثمانيين.

– ويُذكر أنّ الخليفة العباسي بعد أن توفي سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م آلت الخلافة إلى العثمانيين، وظلت فيهم حتى ألغاها كمال أتاتورك سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

– وفي هذا السياق لا يمكن قبول الرواية التي تذكر أن السلطان سليم الأول أجبر الخليفة العباسي في إستانبول على التنازل له عن الخلافة في احتفال أقيم في مسجد آيا صوفيا.

السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/ ١٥١٩-١٥٦٦م) "الإمبراطورية في قمة عظمتها":

– توفي السلطان سليم الأول ولم يترك من الأبناء سوى ابنه الوحيد سليمان، وستة من البنات، ولذلك وجد سليمان العرش العثماني خالصا له دون منازع. وقد وصل إلى الحكم وهو في السادسة والعشرين من عمره في الوقت الذي كانت فيه الدولة تعيش أزهى عصورها، وقمة نضجها. وقد حافظ سليمان على الإنجازات التي ورثها من السلاطين العثمانيين الذين سبقوه وأضاف إليها الكثير فأصبح عهده عهد الفتوحات العظيمة، والسياسة الحكيمة، والعلم والمعرفة، والفنون والآداب، والنظم والقوانين.

– وقد عُرف السلطان سليمان بالقانوني أو المشرع؛ لأن فترة حكمه الطويلة شهدت إصدار القوانين التي حددت كيان الحكومة وحقوق كل من أعضاء الطبقة الحاكمة والرعايا وواجباتهم، ولذلك سمي بالقانوني.

Scanned with CamScanner

توسعات العثمانيين في الشرق

– أكمل السلطان سليمان القانوني ما بدأه أبوه السلطان سليم الأول من التوسع في الشرق وقد استطاع السلطان سليمان أن يضم إلى دولته عددًا من البلاد المهمة.

(١) **اليمن**: يشكل موقع اليمن أهمية كبيرة للعالم الإسلامي؛ فهو مفتاح العالم الإسلامي من جهة الجنوب وقد تعرض في مطلع القرن السادس عشر للخطر الصليبي البرتغالي، وعجزت القوى المحلية عن التصدي للخطر البرتغالي، ويضاف إلي ذلك أن سيطرة العثمانيين على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن المقدسة في الحجاز، والتحكم في البحرين: الأحمر والعربي.

– وعلى الرغم من إعلان اليمن دخولها تحت السيادة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول فإنه لم يخلص للعثمانيين إلا في عهد السلطان سليمان الذي أعد حملة لذلك في سنة٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، واستطاعت أن تستولي على اليمن وتخضعه بصورة مباشرة للسيادة العثمانية.

غير أنه لم يستقم للعثمانيين طوال الوقت فقد تجدد النزاع بصورة مستمرة بين العثمانيين وبين الزيديين، وتوالت حملات العثمانيين على اليمن لضمان السيطرة عليه، ورغم ذلك لم يتمكن النفوذ العثماني من التغلغل داخل اليمن، واكتفى باتخاذ نقاط ارتكاز في مداخل البحر الأحمر وعلى سواحله تمكنه من وقف التقدم البرتغالي وتمنع تهديده للأماكن المقدسة في الحجاز.

(٢) **العراق**: دخل العراق تحت النفوذ الصفوي بعد استيلاء الشاه إسماعيل عليه في عام٩١٤هـ، وقد نال العراق ما نال إيران قبله من تنكيل بأهل السنة، وإجبارهم على التحول للمذهب الشيعي ولم تسلم مقابر رموز المذهب السني من التخريب والانتهاك لحرمتها، كقبر الإمام أبي حنيفة، وقبر الشيخ عبد القادر الجيلاني.

– وفي عام ٩٤١هـ استطاع السلطان سليم أن يضم العراق لدولته لكنه لم يخلص بصورة نهائية للعثمانيين، فقد سقط العراق مرة أخرى في أيدي الصفويين سنة١٠٢٢هـ في عهد الشاه عباس الصفوي، واستمر تحت سيطرتهم حتى سنة ١٠٤٨هـ حيث عاد للعثمانيين في عهد السلطان مراد الرابع، وظل النزاع عليه قائما بين الدولتين حتى خلص للعثمانيين سنة ١١٦٠هـ وانتهى التهديد الصفوي له.

٢ ولم يكن التوسع العثماني مقصورا على بلدان الشرق الإسلامي وحدها؛ فقد امتد النفوذ العثماني في الشمال الإفريقي أيضا في عهد السلطان سليمان القانوني، ففي عام ٩٥٩هـ تمكن العثمانيون من السيطرة على طرابلس، وقبلها كان العثمانيون قد سيطروا على تونس.

– وفي الخليج العربي تمكن العثمانيون من التصدي للنفوذ البرتغالي فيه، وطردوهم من مسقط سنة ٩٦١هـ، وبسطوا نفوذهم على عُمان، والإحساء، والبحرين، والكويت مع بقاء السلطة الداخلية هناك للأمراء والشيوخ العرب والاعتراف باستقلالهم الذاتي.

استئناف الفتوحات في أوروبا:

– بعد أن بسط سلطانه على أقطار الشرق الإسلامي أصبح السلطان العثماني زعيم العالم الإسلامي، وحامي المذهب السني، ورغب في استئناف الفتوحات العثمانية في أوروبا والتي طال توقفها منذ زمن جده السلطان بايزيد الثاني.

– بدأت الفتوحات العثمانية في أوروبا بفتح مدينة "بلجراد/ بلغراد" سنة٩٢٧هـ، وكانت هذه المدينة درعا يحتمي وراءه المجريون لحصانتها، وبعدها فتحت جزيرة رودس التي استعصت من قبل على السلطان محمد الفاتح، وقضى السلطان بفتحه لها على مركز مهم للقراصنة المسيحيين في البحر المتوسط كان يهدد التجارة الإسلامية.

– وفي أعقاب فتح بلجراد تكون حلف مسيحي ضم جيوش أوروبا على رأسهم جيش المجر العدو التقليدي للعثمانيين، وقد استطاع العثمانيون التغلب على هذا الحلف في موقعة موهاج، وقتل عدد كبير من جنود المجر، وعلى رأسهم الملك نفسه.

– وفي عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م زحف السلطان سليمان بجيش قوامه ربع مليون جندي على فينا، لكن سكانها دافعوا عنها ببسالة مما أدى إلى فشل الحصار، وعاد العثمانيون ثانية بعد ثلاث سنوات وتم عقد صلح بين الطرفين في عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م.

الصفويون مرة أخرى

– قلنا من قبل إن معركة جالديران لم تكتب نهاية للدولة الصفوية رغم الهزيمة الشديدة التي حلت بها، وقد حاول الشاه إسماعيل الصفوي الثأر لنفسه بعد هذه الهزيمة، ولجأ إلى عقد تحالفات مع الدول الأوروبية بحيث يمكن للطرفين أن يقوما بالهجوم على الدولة العثمانية في وقت واحد من الشرق والغرب فيسهل القضاء عليها لكنه مات قبل تنفيذ ذلك.

– وقد ورث أبناء الشاه إسماعيل الصفوي وأحفاده الصراع مع العثمانيين، وكانت المذهبية تلعب دورًا أساسيا في تحريك ذلك الصراع، وقد تجلت المذهبية البغيضة في أحط صورها في عهد الشاه عباس الصفوي (١٠٣٨هـ/١٦٢٩م) الذي كان يسمح للبعثات التبشيرية المسيحية بالإقامة في بلاده، ويعقد التحالفات مع أوروبا بهدف المساعدة في الحرب ضد العثمانيين المسلمين في الوقت الذي كان فيه شديد التعصب تجاه العثمانيين لكونهم من أهل السنة.

وكانت الفترة التي تولى فيها الشاه عباس حكم إيران من أكثر الفترات التاريخية التي شهدت اضطرابا بين الدولتين،

– وعلى مدى عشرين عاما من عام ٩٤١ هـ إلى عام ٩٦٢هـ كانت العلاقة العثمانية الصفوية مضطربة لا سلام فيها، وقد دارت فيها عدة معارك؛ وانتهى الأمر بعقد صلح بين السلطان سليمان والشاه طهماسب بن إسماعيل سنة٩٦٢ هـ، وساد الهدوء بين الفريقين بعد هذه

Scanned with CamScanner

المعاهدة فترة من الزمن تقارب خمسة وعشرين عاما.

الفصل الثالث: الدولة العثمانية بعد سليمان القانوني: (ضعف وانهيار)

– تعد الفترة التاريخية التي حكم فيها السلطان سليمان فترة فارقة في التاريخ العثماني؛ فقد بلغت الدولة في عهده أوج اتساعها وقوتها برًا وبحرًا.

– وعلى الرغم من ذلك فإن مقدمات الضعف والانهيار بدأت مع نهاية هذا العهد؛ إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته (خرم سلطان) المعروفة في أوروبا باسم (روكسلانا)، فتدخلت لإزاحة الأمير مصطفى من طريق الحكم لأجل ابنها سليم، على الرغم من كفاءة الأمير مصطفى وتأييد الإنكشارية له، يضاف إلى ذلك أن السلطان بدأ في الانسحاب من جلسات الديوان الذي كان يصدر القرارات المهمة، فأدى ذلك إلى ظهور الاضطراب والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية.

– خلف السلطان سليمان القانوني في الحكم ابنه سليم الثاني الملقب بالسكير (٩٧٤– ٩٨٢هـ)؛ وبتوليه الحكم يكون قد تقلد سيف عثمان للمرة الأولى حاكم لا يقود جيش المسلمين بنفسه، بل يمضي أوقاته في ملاذته الرخيصة.

ويمكن إرجاع هذا الاضمحلال والتدهور إلى عدة أسباب أهمها:

(١) معاصرة سلاطين الفترة الثانية للزحف الاستعماري الأوروبي في أشد مراحله عنفا وضراوة.

(٢) إن هؤلاء السلاطين لم يكن لهم من الأمر شيء في تصريف أمور الدولة؛ لضعف شخصيتهم والوقوع تحت تأثير النساء وسيطرة كبار رجال الدولة على السلاطين، وظهور مراكز قوى في البلاط السلطاني.

(٣) لم يفكر السلاطين في تطوير أنظمة الدولة تطويرًا حقيقيًا، سواء في الحكم، أم في الحرب، أم في الإدارة بما يواكب الأوضاع الجديدة التي طرأت على أوروبا.

أولاً: العوامل الداخلية التي أسهمت في أضعاف الدولة العثمانية:

(١) حركات التمرد والانفصال عن الدولة العثمانية:

ومن أبرز هذه الحركات ما يلي:

(أ) حركة علي بك الكبير في مصر (١١٧٧- ١١٨٧هـ/ ١٧٦٣-١٧٧٣م):

– علي بك الكبير هو زعيم مملوكي، من بقايا المماليك الذين اعتمد عليهم العثمانيون حكم مصر؛ لمعرفتهم بالبلاد واتصالهم بطوائف الشعب، ومن ثم اعتمد عليهم العثمانيون في حكم الأقاليم، ومساعدة الوالي العثماني الذي يحكم البلاد بصفته نائبا عن السلطان العثماني، وقد تقلد علي بك الكبير وظيفة "شيخ البلد"، وهي أهم وظيفة بعد الوالي أو الباشا العثماني حيث كان يخول إليه حكم القاهرة وكان ينوب عن الوالي، ويتولى دفة الحكم مؤقتا عند عزل الوالي حتى يصل الوالي الجديد. ومنذ وصول علي بك الكبير إلى منصب شيخ البلد وهو يعمل على الانفراد بحكم مصر، فأكثر من شراء المماليك وتربيتهم حتى أصبح له بهم جاه عظيم وكان في قمتهم مملوكه الكبير محمد أبو الدهب، ولم يكتف بذلك بل اتصل بقائد الأسطول الروسي بالبحر المتوسط ليمده بالأسلحة والذخيرة حتى يتمكن من الاستقلال بحكم مصر.

– وفي عام ١١٨٤هـ جاءته الفرصة ليستقل بحكم مصر وذلك عندما اشتبكت الدولة العثمانية في حرب مع روسيا، فأعلن استقلاله عنها وطرد الباشا العثماني، وامتنع عن إرسال الإيرادات المالية إلى إستانبول، وضرب عملة جديدة حملت اسمه بجوار اسم السلطان، وامتد سلطانه حتى بلاد الشام، لكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد تعرض لخيانة من مملوكه محمد أبي الدهب الذي انقلب عليه ليسلبه الحكم، وألب عليه المماليك، واتهمه بالكفر ومهادنة أعداء الإسلام، ووقع صدام بين الطرفين هزم فيه علي بك الكبير وتوفي بعد ذلك متأثرا بإصاباته في المعركة، وانفرد أبو الدهب بحكم مصر، لكنه توفي بصورة مفاجئة في عام (١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م).

(ب) حركة الشيخ ظاهر العمر في الشام:

– وهي حركة معاصرة لحركة علي بك الكبير، صاحبها كان حاكما على عكا، واستطاع أن يحصنها وأن يجعلها قاعدة لحكمه، واستغل هو الآخر انشغال العثمانيين بحرب الروس، وتحالف مع علي بك الكبير للتخلص من الوالي العثماني في دمشق، لكن انقلاب محمد أبي الدهب على سيده أفسد هذا التحالف، ولجأ العثمانيون إلى محمد بك أبي الذهب الذي استطاع أن يستولي على يافا وعكا ولكن لموته المفاجئ لم يكمل مهمته. وقد استطاعت الدولة العثمانية بعد سبع سنوات هي عمر هذه الحركة الانفصالية من القضاء عليها.

(ج) الأسر الدرزية في لبنان:

– في جبل لبنان بعض الأسر الدرزية على الحكم العثماني، وعملت على توسيع قاعدة ملكها، ومن أشهرهم الأمير فخر الدين المعنى الثاني ت١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م الذي حاول احتلال دمشق، فاضطرت الدولة إلى إرسال حملة بحرية للقضاء عليه، ففر هاربا إلى إيطاليا، لكنه عاد بعد ذلك بعد أن عفا عنه السلطان العثماني عثمان الثاني، لكن هذا الرجل ظل معاديا للعثمانيين طوال فترات حكمه، ولم يحفظ جميل

Scanned with CamScanner

السلطان الذي عفا عنه وأعاده لحكم لبنان، وخرج على الدولة معلنا الثورة عليها، لكن تمكن العثمانيون من القضاء عليه في عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م.

- هذه أبرز النماذج على الحركات الانفصالية، ويضاف إليها ثورة المماليك في العراق، ورفض أهل اليمن الزيدية لحكم العثمانيين السنة، وفي ليبيا أيضا حدثت بعض الحركات الانفصالية، وكذلك في الجزائر وفي تونس.

ومما لا شك فيه أن حركات التمرد والانفصال التي قامت في الشرق الإسلامي، قد نالت من الدولة العثمانية، وأضعفت قوتها.

٢- اليهود ودورهم في إضعاف الخلافة العثمانية وإسقاطها:

من الأمور والعجيبة أن يكون اليهود عاملاً مهمًا من عوامل ضعف وسقوط الدولة العثمانية:

- ومصدر العجب أن العثمانيين هم الذين رحبوا باليهود عندما فروا من الأندلس مع مطلع القرن ١١هـ هربا من الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي النصارى الأسبان.

حيث استقبلت الدولة العثمانية حوالي عشرون ألفا منهم ورحبت بهم.

- ولكن اليهود هم اليهود لا يمكن أن يقل حقدهم على الإسلام، مهما أحسن المسلمون إليهم، ودائما ما يردون إحسان المسلمين إليهم بالإساءة.

ومن ثم بدأت مخططات اليهود من أجل إسقاط الدولة العثمانية، وذلك كالتالي:

(١) **التظاهر بالإسلام**: وذلك من أجل الوصول إلى أعلى المناصب في الدولة، والقيام بدورهم في تخريب وتدمير الدولة العثمانية. وبالفعل وصل عدد من اليهود إلى أعلى المناصب ومنها منصب الصدر الأعظم (أي رئاسة الوزراء)، والوزارة وقيادة الجيوش، وقادة المدارس العسكرية، ونفذ هؤلاء جميعا مخططهم لتدمير الدولة من داخلها.

ويأتي علي رأس هؤلاء (رشيد باشا) الذي تولي منصب الصدر الأعظم، و(مدحت باشا) الذي دبر مؤامرة اغتيال السلطان عبد العزيز.

٢ - **خلي بالك**: عُرف هؤلاء اليهود الذين تظاهروا بالإسلام باسم يهود الدونمة أي (المرتدون الذين ارتدوا عن اليهودية ودخلوا الإسلام).

٢ (٢) **تكوين الجمعيات السرية**: حيث نجح يهود الدونمة في تكوين جمعيات سرية في تركيا، منها جمعية (تركيا الفتاة) التي تفرعت عنها جماعة الاتحاد والترقي تلك الجماعة التي عزلت السلطان عبد الحميد الثاني، وسيطرت علي حكم الدولة العثمانية، وبذلك انتقلت السلطة إلى يهود الدونمة.

٢ (٣) **تأليب المسيحيين**: حيث نجحت الدعاية اليهودية في إيغار صدور المسيحيين في أوربا كلها، وزورت وقائع التاريخ والأحداث المتعلقة بحروب العثمانيين في البلقان وبخاصة الحرب مع البلغار، حيث أشاعت الدعاية اليهودية حقائق كاذبة عن وحشية العثمانيين، وجعلت شعوب أوروبا النصرانية تنادي حكومتها بضرورة التحرك لنجدة نصارى البلغار المساكين.

مع أن الحقيقة كانت عكس ذلك.

(٣) انحراف جنود الإنكشارية وطغيانهم:

- أبلت الإنكشارية بلاء حسنًا في المعارك التي خاضها العثمانيون إبان قوتهم، ومع مرور الزمن بدأ الضعف يتسرب إلى صفوفهم عندما عاشوا بين المدنيين وركنوا إلى الراحة، وكثرة تعدياتهم بصفتهم العسكر السلطانية، وتدخلوا في شئون الدولة فتمردوا على الدولة في الصرب وأجبروا السلاطين على إنهاء بعض الحروب، وقتلوا بعض الصدور العظام وأعدموا بعض السلاطين كعثمان الثاني وإبراهيم، وتحدوا بعضهم كمراد الثالث، وهكذا تفاقم أمر الإنكشارية وصاروا هم أصحاب الأمر والنهي، وزادوا في غيهم وطغيانهم.

- ولقد حاول جند الإنكشارية منع استخدام الوسائل الحديثة في التدريب أو الاعتماد على الأسلحة المتطورة ووقفوا ضد كل جديد متطور مما مكن أوروبا من هزيمة العثمانيين والتغلب على محاولاتهم للاستيلاء على فينا وبسبب التخلف الحربي للإنكشارية فقدت الدولة الكثير في عهد السلطان محمد الرابع ومن بعده السلطان سليمان الثاني حيث استولت النمسا على عدد من القلاع والحصون، كما استولت المجر على بعض المدن، وضاعت أجزاء كثيرة من البلقان في اليونان والصرب، وبعض السواحل والممتلكات الأوروبية الشهيرة.

- وقد أدرك السلاطين الخطر المحدق بهم من قبل الإنكشارية لكنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم إلى أن تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء عليهم حيث صبّ عليهم نيران الأسطول والمدفعية إلى أن أجهز عليهم تماما، ولكن بعد أن أشرفت الدولة على الانهيار.

(٤) ضعف السلاطين وفساد الجهاز الإداري للدولة:

- كان السلاطين الذين تقلدوا الحكم بعد سليمان القانوني كانوا - في معظم الأحيان - سلاطين ضعافا ليسوا على مستوى أهلية الحكم، أو كانوا سلاطين صغارا يتحكم فيهم الوزراء والأمراء.

- وقد ترتب عن ضعف السلاطين واختلال نظام الإنكشارية سريان الفساد في أجهزة الإدارة المركزية والمحلية بوجه عام، ولم تعد مهمتها الأساسية الإشراف على تسيير شئون البلاد أو الرقابة على ثرواتها وموازنة نفقاتها بمواردها أو المساعدة على تسيير مصالح الجماهير أو تخفيف الأعباء عن كاهلها، ولكنها انساقت أيضًا في تيار الفوضى والفساد وانفسح المجال لانطلاق الولاة والأمراء والزعماء المحليين في تحقيق أطماعهم الشخصية بواسطة القوة العسكرية التي كانت تحت أيديهم فانتشرت الاضطرابات الداخلية والمنازعات الثأرية الناجمة عن تنافس الأمراء وتحاسدهم والتي كانت تؤدي إلى

Scanned with CamScanner

الثورات والحروب الدامية.

– وما من شك في أن المفاسد السياسية والإدارية "التي ملأت أرجاء العاصمة، إستانبول قد انعكست بصورة مباشرة وتلقائية على ولايات الدولة المختلفة فاستبد الولاة بالحكم، واتسعت دائرة اختصاصاتهم، ففرضوا الضرائب الباهظة على المواطنين لاسترداد ما قدموه من هدايا ورشاوى لكبار الوزراء والموظفين في عاصمة الدولة العثمانية.

ثانيا: العوامل الخارجية التي أضعفت الدولة العثمانية:

(١) الصراع العثماني الصفوي:

– اتسم بطول الأمد، وتزامنه مع انشغال الجيوش العثمانية بالفتوحات في أوروبا، أو في الحرب مع الروس بعد ذلك، وكان هذا يؤثر تأثيرا مباشرا في إضعاف الجيش العثماني، وتوزيع قوته على جبهات متعددة، مما أسهم في إنهاكه وضعفه، وقد أسهمت هذه الحروب المتصلة في إضعاف الدولتين معا.

(٢) الحروب مع الروس:

– تطلع الروس إلى استخلاص القسطنطينية من أيدي العثمانيين وإعادتها إلى نفوذ القوى المسيحية الأرثوذكسية، ولذلك ناصبوا العثمانيين العداء، وتحالفوا مع خصومهم من الصفويين والمجريين والنمساويين.

– وقد ازدادت روسيا قوة واتساعا وصارت إمبراطورية مرهوبة الجانب في عهد "بطرس الأكبر" وحلت روسيا في عهده محل الدولة البيزنطية في صراعها مع العثمانيين، فقد امتدت حتى بحر قزوين، وشكلت تهديدًا مباشرا للدولة العثمانية شمالي البحر الأسود والقوقاز، واتسم صراعها مع العثمانيين بطابع ديني، إذ عَدَّت روسيا المدافع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام، وأنهم أصحاب التراث البيزنطي، فاعتبروا أنفسهم في حالة استنفار دائم ضد الدولة العثمانية المسلمة.

– حيث نشبت الحروب شبه المتصلة بين الروس والدولة العثمانية حوالي ستين عاما، وعقدت بينهما معاهدة صلح سنة ١٠٤٩/ ١٦٣٩م عرفت بمعاهدة "قصر شيرين".

– ولم تلتزم الروس طويلا بهذه المعاهدة فتحالفوا مع النمسا وبولندا والبندقية، واستولوا على المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى، وأجبروا العثمانيين أن يتنازلوا بصورة نهائية عن شبه جزيرة القرم، ثم أعلنوا الحرب المقدسة بتحالفهم مع المجر والصرب وألبانيا والنمسا على الدولة العثمانية، وألحقوا بها هزيمة في سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م، وفقدت جزءا آخر من ولاياتها الأوروبية، وفي عام سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م اضطر العثمانيون الدولة إلى التنازل عن بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعن مدينة آزاق للروس بعد معاهدة "كارلوفتش".

– وقد استمرت الحروب العثمانية الروسية، حيث قام الروس بمعونة من فرنسا وإنجلترا على فصل اليونان عن الدولة العثمانية سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م، وتحالف الروس مع صربيا لتنفصل عن الدولة العثمانية عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م وعن طريق إذكاء الروس للاضطرابات في الجبل الأسود وبلغاريا، وانتصارهم على العثمانيين انفصلت رومانيا والجبل الأسود وبلغاريا وكريت والبوسنة والهرسك، التي ضمت إلى النمسا.

– والخلاصة أن الروس كان من أكبر العوامل الخارجية في القضاء على الدولة العثمانية، وفي إيغار صدور الأوروبيين ضد المسلمين، ولم تكن صدورهم تحمل الود لهم، ولكن الروس زادوا من نيران الغضب والحقد على المسلمين في أوروبا".

(٣) الامتيازات الأجنبية وأثرها في إضعاف الدولة العثمانية:

– من النظم التي تسللت إلى الدولة العثمانية وكانت عاملاً مهمًا من عوامل ضعفها نظام الامتيازات الأجنبية الذي قام بدور بارز في تاريخ الدولة العثمانية، إذ عرقلت هذه الامتيازات كثيرًا من جهود الإصلاح والتقدم في عهد التنظيمات؛ ذلك أن الدول الأوروبية الكبرى كانت لاتنفك عن التدخل في شئون الدولة العثمانية بطرق مختلفة استنادا إلى نظام الامتيازات الأجنبية.

– ومن هذه الامتيازات التجارية الواسعة التي حصلت عليها فرنسا فصارت سفنها التجارية تجوب البحر المتوسط بين مرسيليا والموانئ العثمانية للإتجار معها، والإقامة والتجول بكل حرية. وهناك امتيازات أخرى حصلت عليها روسيا وإنجلترا وغيرهما.

– ورعايا الدول الأوروبية كانوا لا يحاكمون في محاكم الدولة ولا تسري عليهم قوانينها، وما كان يحق لسلطات الأمن والعدل العثمانية أن تفتش مساكن أحد من هؤلاء الأجانب لأي سبب ولا أن تحقق معهم أو تحاكمهم إلا بحضور ممثل من قنصلية الدول التي ينتمي إليها، وكان بعض رعايا الدولة وخاصة المسيحيين يسعون من للحصول على رعوية إحدى الدول الأجنبية ليتسنى لهم الاستفادة من تلك الامتيازات. وبناء على هذه الامتيازات الأجنبية استطاع القناصل أن يتزعموا سلطة الفصل في القضايا والخصومات التي تقع بين رعاياهم من جهة وبين

Scanned with CamScanner

كل من الأهالي أو الحكومة من جهة أخرى، مما عرقل سير العدالة، وحال دون تحقيق الحق وإنزال العقوبة بالمخطئ.

(٤) القصور الحضاري وأثره في انهيار الدولة:

– ظهرت في أوروبا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي نهضة علمية وصناعية عرفت "بالثورة الصناعية" وعرفت أوروبا كيف تستثمر هذه النهضة، وتأخذ بأسبابها حتى تزداد قوة وتفوقا وقد استخدمت هذا التقدم سلاحا في مواجهة القوة الإسلامية الوحيدة التي كان يُخشى بأسها في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية.

– وقد حاولت الدولة العثمانية مجاراة هذه الدول في الأخذ بأسباب المدنية، ولكن خطواتها كانت قاصرة وئيدة؛ ومن هذه المحاولات ما قام به السلطان مصطفى الثالث من إصلاحات عسكرية في ميدان البحرية والمدفعية، وما فعله السلطان عبد الحميد الثاني فقد افتتح كثيرا من المدارس والجامعات، ووجه البعثات إلى أوروبا، وأدخل عددًا من المخترعات الحديثة.

(٥) الكشوف الجغرافية والاستعمار الحديث وأثرهما في انهيار الدولة العثمانية:

– لقد أعطت الكشوف الجغرافية البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين تفوقا بحريًا هائلا في مناطق الخليج العربي والمحيط الهندي وشرق أفريقيا، وبذلك فقد المسلمون ميادين تجارية كانت في أيديهم، لحساب تلك القوى الأوروبية، ومع أن التجارة ظلت تصل إلى ممتلكات الدولة العثمانية من الشرق، إلا أنها أخذت تتناقص بالتدريج، فوقوع التجارة في أيد، أجنبية من ناحية، وتحول طرق التجارة عبر المحيطات من ناحية أخرى حرم الإمبراطورية العثمانية من نصيب كبير من تجارتها الخارجية وأثر تأثيرا مباشرًا على الاقتصاد العثماني الذي ساده الجمود، وأخذ يتداعى تدريجيًا، ونتج عن ذلك حدوث عدد من الأزمات المالية العديدة، كذلك نتج عن ضعف القوات البحرية العثمانية في البحر المتوسط انفصال ولايات المغرب العربي على أيدي عصبيات عسكرية بحرية في كل منها، وهكذا تدهورت الدولة العثمانية اقتصاديًا وسياسيًا.

الفصل الرابع: نظام الحكم ومظاهر الحضارة العثمانية

أولا: البناء السياسي والإداري للدولة:

- (١) **السلطان**: كان السلطان العثماني يمثل قمة السلطة السياسية والدينية في الدولة، وله يخضع سائر حكام الولايات والمقاطعات وأجهزة الدولة السياسية والإدارية والعسكرية، وكان يتمتع بسلطات مطلقة في الحكم والإدارة.

– وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حرص السلاطين العثمانيون على التمسك بلقب "خليفة" ليؤكدوا زعامتهم للعالم الإسلامي في مواجهة المؤامرات الاستعمارية ضد الدولة.

– وكان السلطان يختار ولي عهده من أبنائه أو إخوته دون التقيد بنظام محدد، أو تقديم الابن الأكبر سنا، وقد فتح ذلك بابًا للدسائس والمؤامرات وبخاصة في مرحلة الضعف. وكان الابن الذي يتولى العرش يتجه إلى التخلص من جميع منافسيه، ولا يتورع عن قتل إخوته وأقاربه من الذكور، أو أن يقوم السلطان بتحديد إقامة هؤلاء في مقصورة داخل القصر لها حديقة، ومعه عدد قليل من الخدم والجواري، ويظل محبوسا فيها مدى الحياة، وقد أسماها البعض "أقفاص الأمراء".

(٢) **الصدر الأعظم**: هو المنصب السياسي الأهم في الدولة بعد منصب السلطان، وقد عرف هذا المصطلح في الدولة العثمانية بعد اتساع رقعتها، فقد ازدادت الأهمية السياسية لمنصب الوزير، ولم تعد مقصورة على تصريف بعض شئون الدولة فحسب، وأصبحت الحاجة ماسة إلى إعطائه لقبا يناسب المهام المخولة إليه من قبل الدولة.

(٣) **الديوان الإمبراطوري "الهمايوني"**:أطلق اسم "ديوان همايون" على ذلك الديوان الكبير الذي يعد المرجع الأول المسئول عن إدارة كافة شئون الدولة العثمانية. ولقد عرف العثمانيون أصول الديوان منذ عصر أورخان غازي. ومما لا شك فيه أن العثمانيين قد تأثروا في ذلك بما كانت عليه من تشكيلات الدولة الإسلامية السابقة بخاصة دولة سلاجقة الأناضول.

– ويعتبر الديوان الهمايوني القلب النابض للدولة العثمانية حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي فكان ينظر في كافة شئون الدولة السياسية والعسكرية والإدارية والمالية والعرفية والشرعية والقضائية ويصدر القرارات بخصوصها بعد مناقشتها من قبل الهيئات المتخصصة بالديوان ويشرف على إدارتها مما يحقق الترابط والتفاعل بين مؤسسات الدولة المختلفة.

ثانيا: الهيئة الدينية في الدولة:

– يختلف الإسلام عن النظم الثيوقراطية والكهنوتية، فليس فيه هيئة تزعم أنها تحتكر الدين، وتصدر صكوك الحرمان والغفران كما في غيره من الأديان ولكن المقصود بالهيئة الدينية: الجهة المسئولة عن رعاية الدين ورجاله، وشعائره، وتطبيق أحكامه، وهذه الهيئة تضم العلماء،

Scanned with CamScanner

والمدرسين، والقضاة، والمفتين، وديوان الإقطاع الديني أو الأوقاف.

– وكان العلماء يمثلون أكبر قوة مستقلة في الدولة العثمانية، ولا تخضع لسلطان الصدر الأعظم، وعلى رأس الهيئة الدينية كان "شيخ الإسلام" وهو رأس العلماء، ولم يكن عضوا في الحكومة، إلا أنه كان له تأثير بالغ في أمور الدولة، وهذا التاثير وصل إلى حد أن الاتهامات التي ترد في فتاوى شيخ الإسلام يمكن أن تؤدي إلى عزل السلاطين، وإسقاط الكثير من الصدور العظام.

– ومن عناصر الهيئة الدينية في الدولة "القضاة" وكانوا يمرون بطريق دراسي طويل قبل تولي هذا المنصب، ولم تسمح الدولة لغير المؤهلين علميا بتقلد مناصبه، ووضعت نظاما دقيقا لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم، وكانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء المدنية أم الجنائية، وكان القضاة عن بكرة أبيهم مسلمين، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمي للدولة. أما رعايا الدولة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية، وكانت تنظرها المحاكم الكنسية الخاصة بهم.

– وينتمي إلى الهيئة الدينية الإسلامية نظارة الأوقاف الخيرية، وكان يشرف عليها شيخ الإسلام، أو الصدر الأعظم وكانت تستمد مواردها من الأراضي الزراعية الموقوفة إلى جانب تبرعات الأغنياء وأهل الخير، وكان الواقف يذكر في وصيته أوجه الإنفاق التي يريد أن يوجه المال إليها، ويلتزم المشرفون بتنفيذ وصيته التزاما دقيقا.

– وينفق من الوقف على المساجد، ودور العلم من مدارس ومكاتب ومكتبات، وعلى الزوايا والتكايا، والمستشفيات، والملاجئ، والأسبلة، والحمامات العامة، وعلى الأرامل والأيتام والمعوزين، ومساعدة اليتيمات والفقيرات على الزواج، وتسديد ديون الغارمين والمسجونين وغير القادرين على أداء الضرائب المقررة عليهم ودفن الموتى المقررة من الفقراء وغير ذلك من أوجه البر.

ثالثا: المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية:

– اهتم السلطان أورخان – الذي وضع الأساس الأول للدولة العثمانية – بوضع النواة الأولى للمؤسسات العلمية والاجتماعية، فأمر ببناء مدرسة بجوار العمارة والجامع الكبير الذي أمر ببنائه في "إزنيق"، وقد أقيمت المدرسة في عام ٧٣١هـ/١٣٣١م.

– وخلال عهود مراد الأول، وبايزيد الأول، ومحمد جلبي ثم مراد الثاني، شهدت الحركة العلمية في الدولة ازدهارا تدريجيا، حيث راح كل سلطان يقيم مؤسسات علمية في كل الأراضي المفتوحة، وأخذ رجال الدولة وأمراؤها يقلدون السلاطين في ذلك، حيث كانت هذه المؤسسات التعليمية عاملا هامًا لانتشار الثقافة الإسلامية في مناطق الروميلي "البلقان" خلال فترة قصيرة. ومن ناحية أخرى، فقد حافظ العثمانيون على المؤسسات التي كانت الإمارات التركمانية قد أقامتها من قبل، فأوقفت عليها الأوقاف وعُين عليها العلماء. وخلال النصف الأول من القرن ٩هـ/ ١٥م، أصبحت أدرنة مركزا حصينًا للدولة العثمانية، حيث حلّت مدارسها محل مدارس بورصة، حيث أقام مراد الثاني فيها المدارس ودار الحديث والجوامع والعمارات والمعلمخانة والمسافرخانة. وقد استمرت مدارس أدرنة تحافظ على مكانتها المتصدرة بين مدارس الدولة حتى افتتاح مدارس "صحن ثمان" في إستانبول خلال عهد محمد الفاتح.

– وخلال عهد سليمان القانوني، وعلى أثر شعور الدولة بالحاجة لتدريس العلوم الرياضية الطبية، أقام السلطان أربع مدارس التدريس علوم الرياضيات، وذلك علاوة على مدرسة دار الحديث ومدرسة الطب، حيث أطلق عليها جميعًا اسم "السليمانية" عام ١٥٥٦م/٩٦٣ هـ في حجرات جامع السليمانية.

– وكانت المدارس العثمانية تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين. ففي المجموعة الأولى كانت تدخل مدارس الخارج، التي كانت تُدرَّس فيها "أصول المعارف "كاللغة العربية والعلوم العقلية". أما المجموعة الثانية فكانت تضم "مدارس الداخل" التي تُدرَّس "المعرفة المتقدمة"، أي العلوم الدينية.

رابعا: الحركات الصوفية في الأناضول:

– التصوف من أنماط التدين الرائجة في الشرق الإسلامي بصورة ملحوظة، وقد صبغ الحياة الدينية في الأناضول في الفترة التي حكم فيها العثمانيون، وساعد على ذلك إكبار سلاطين العثمانيين للصوفية واعتقادهم فيهم، مما سمح للفرق الصوفية بالانتشار والسيطرة على مشهد الحياة الدينية في البلاد.

– لكن التصوف في الأناضول لم يكن على نسق واحد، أو قسم واحد ويمكن فرز الطرق الدينية في الإمبراطورية العثمانية إلى قسمين رئيسين. فالقسم الأول يتضمن الطرق المعروفة التي لها تكايا تدعمها مداخيل الأوقاف المؤسسة من قبل السلطان وكبار رجال الدولة، والتي لها تنظيم واضح وشعائر محدّدة. ومن أشهر هذه الطرق: النقشبندية، والمولوية، والخلوتية، وفروعها المختلفة، والتي تتمركز في المدن وتستقطب أتباعها من الشرائح العليا في المجتمع.

خامسا: المؤسسات الاجتماعية لدى العثمانيين:

– تعددت المؤسسات الاجتماعية في الدولة العثمانية، فشملت العبارات والمستشفيات ومنازل القوافل والكباري والخانات والحمامات وسواقي السبيل والزوايا وغيرها، حيث أرقفت الأوقاف على هذه المؤسسات لصيانتها والصرف عليها وعلى القائمين على شئونها حتى تستمر في خدماتها الاجتماعية بدون تقصير، كما كانت الدولة تخصص قسما من الضرائب التي يتم تحصيلها من الرعايا للمحافظة على هذه

Scanned with CamScanner

المؤسسات حتى تستمر في لعب دورها المميز في المجتمع العثماني.

- **العمارات**: وهي إحدى المؤسسات الاجتماعية التي امتد أثرها وعمّت فائدتها إلى عصرنا الحديث. وكانت هذه العمارات عبارة عن أماكن يأوي إليها كل ذي كبد رطب من الإنسان والحيوان، تقيه الحر والبرد يوفر له فيها الماء والطعام، وكافة احتياجات المحتاجين والأيتام وطلاب العلم وابن السبيل: فقد أنشأ أورخان غازي أول عمارة مع مدرسة "إزنيق"، فضلا عن ثلاثة عمارات أنشأها إحدى الأسر. أما في بورصة، فكانت هناك أربعة وعشرون عمارة أقامها الوزراء والأمراء علاوة على العمارات الكبرى التي أمر بإنشائها كل من مراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني خلال مرحلة تأسيس الدولة وأوقفوا عليها الأوقاف. وقد قام أمراء الدولة بالإسهام في إنشاء مثل هذه العمارات في كافة ولايات الدولة. وقد زادت إسهامات السلاطين والأمراء في عهد الازدهار، حيث شملت كافة أنحاء الدولة العثمانية خلال عهود محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني.

- **المستشفيات**: وتعد المستشفى التي أمر بايزيد الأول بإنشائها في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م في شرق مدينة بورصة وبجوار المسجد عند أولوداغ – أول مستشفى يقيمها العثمانيون. وقد حررت لهذه المستشفى وقفية عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، حيث تبين الوقفية أن السلطان بايزيد طلب من السلطان المملوكي الظاهر برقوق أن يرسل إليه طبيب متفقه في الطب للعمل في هذه المستشفى فأرسل إليه طبيب يدعي (شمس الدين الصغير) وكان في المستشفى ثلاثة أطباء وفردان من الصيادلة، وفردان من ملاحظي المرضى وطباخ وخباز وغيرهم من الخدمة، ولما ضم العثمانيون ولايات سيواس وأماسيا وتوقات وجانقري وقسطموني وقونية، أقروا بشروط الأوقاف التي أوقفت على مختلف المؤسسات ومنها المستشفيات، حيث استمر العمل فيها وفقًا لشروط الوقف.

– وقد أنشأ محمد الفاتح مستشفى عقب إقامته مدارس "صحن ثمان" عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، وأوقف عليها الأوقاف. وفي عهد بايزيد الثاني أنشئت مستشفى في أدرنة وإلى جوارها مدرسة للطب عام ٨٩٠هـ/ ١٨٤٥م. وفي عام ٩٤٦/ ١٥٣٩م، أمرت خرم سلطان زوجة سليمان القانوني ببناء مستشفى إلى جوار جامع خاصكي سلطان في استانبول.

– كما أمر السلطان سليمان القانوني بإنشاء مستشفى إلى جوار كلية السليمانية عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م. ولم يتردد وزراء الدولة وأمراؤها في المساهمة في إقامة المستشفيات في كافة أنحاء الدولة والاهتمام بما كان موجودا منها وتدعيمه ووقف الأوقاف عليه.

- **منازل القوافل والخانات**: وهى تلك المنازل التي كانت تقام على الطرق في المدن والضواحي. ولم يكن بهذه المنازل حجرات بل كان الأفراد يجلسون على الكروت ويتكئون عليها. وما يميز هذه المنازل عن الخانات التي كانت موجودة على الطرق أيضًا هو أن تلك الخانات كان بها حجرات تشبه حجرات الفنادق اليوم إلى حد كبير. وكان "الكروانسراي" عبارة عن منزل استضافة عام يرد إليه المسافرون، حيث كان أي شخص يمكن أن ينزل في هذه المنازل بصرف النظر عن ملته أو دينه او مذهبه فكان له حقًا الأكل والشرب والنوم ثلاثة أيام، وكانت الدولة تضع على مثل هذه الأماكن أفراد مناوبة لحماية قوافل المسافرين والتجار من أي هجوم يمكن أن يتعرضوا له عند مرورهم من الأماكن الخطيرة والوديان السحيقة. وكان هؤلاء المناوبون يقيمون بجوار طرق السفر.

- **أما الزوايا**: فقد كانت خاصة بالفرق الصوفية، وكانت تقع – في الغالب– في أطراف المدن والضواحي، وفي القرى وعلى الطرق، وكانت الدولة تمنحها الأوقاف اللازمة للإنفاق، وكان لكل مسافر يمر علي الزاوية مكان للطعام والشراب والنوم.

س/ ظلل "تخير" الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- أول من تحول من الصفويين من المذهب السني إلى المذهب الشيعي (السلطان جنيد) وهو أول من حمل لقب سلطان.
٢- اعتمد السلطان حيدر على مجموعة من القبائل عرفت في التاريخ باسم قبائل....
٣- كانت عاصمة الدولة الصفوية في إيران هي (تبريز).
٤- قرر السلطان محمد الفاتح مهاجمة القسطنطينية من الجهة الواقعة على... حيث كانت أضعف جبهات البيزنطيين.
٥- كان عدد جيش السلطان محمد الفاتح عند مهاجمة القسطنطينية (١٥٠ ألف).
٦- تمكن محمد الفاتح من فتح القسطنطينية سنة....
٧- كان السلطان محمد الفاتح منذ صغره يرغب في نيل شرف فتح القسطنطينية بفضل أستاذه ومربيه الفاضل الشيخ (آق شمس الدين).
٨- أطلق المؤرخين العثمانيين على الدولة العثمانية في العصر الأمبراطوري اسم....

Scanned with CamScanner

س/ ظلل "تخير" الإجابة الصحيحة فيما يلي:

استقل الأمير عثمان بإمارته في الأناضول في عهد السلطان علاء الدين السلجوقي.	(×)
يرى بعض المؤرخين أن قبيلة (قايي) كانت مسلمة قبل القدوم إلى الأناضول ويرى بعضهم أنها اعتنقت الإسلام في عهد الأمير عثمان تأثرا بالسلاجقة المسلمين.	
وقعت مهمة تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية على كاهل أورخان ومراد الأول وقد نجحا في ذلك.	(✓)
كان لروح الجهاد دور مؤثر في انتصارات العثمانيين على الدولة البيزنطية.	
رحبت بعض الأسر العثمانية بتقديم أولادهم للعثمانيين لينضموا إلى الجيش العثماني ليضمنوا لهم مستقبلا لامعا.	(✓)
كانت فرقة الإنكشارية هي العنصر الرئيسي في الجيش العثماني خلال فترة الفتوحات، الأولى القرنين التاسع والعاشر الهجريين.	
كان قوام فرقة الانكشارية خلال عهد مراد الأول وبايزيد حوالي ألف جندي فقط.	(✓)
استنجد الإمبراطور البيزنطي بالسلطان أورخان عام ٧٥٦هـ ليساعده ضد ملك الصرب.	
كان الاستيلاء على شبه جزيرة جاليبولي بمثابة أولى خطوات الجيش العثماني إلى البلقان.	(✓)
حددت معركة قوصوة مستقبل ممالك البلقان وأدخلته تحت الحكم العثماني لمدة ٥٠٠ سنة.	

تم بحمد الله... مع تحيات مركز الكابتن العلمي...

Scanned with CamScanner